597
٥٩٧

قصص حب

www.elromancia.com

مرمورية

آثار على الرمال

Nahas

صادرعن دار م. الشامي

آثار على الرمال

وافقت ماريتا على قضاء فترة إجازتها في منزل عائلة

تيودور. اعجب الوالد هارفورد بها فأحبها وطلب منها

الزواج، لكن ابنه رايان عمل المستحيل ليفرق بينهما، هل

نجح رايان بذلك بعد ان اوقعها في حبه ام لا؟

www.elromancia.com

سوريا: ٦٠ ل.س
السعودية: ١٠ ريالات
قطر: ١٠ دراهم
ينار - المغرب: ٨ درهم
ينار

EMI 10 ASST BOOKS
2 000002 680284
Dhs 10.00
52-87000-34707-5

آثار على الرمال

وبدأت تقول:«أنا آسفة.»
كان هذا كل ما امكنها قوله ثم أردفت تقول وهي تتراجع:«سوف أذهب فلم يكن في نيتي ان اضايقك.»
«اذن انت صديقة والدي؟»
«صديقة البروفيسور تيودور؟»
«ألم يذكرني أبي لك؟ ولكن هذا لا يدهشني فقد حاول ان ينسى ذلك لمدة اثنين وثلاثين عاماً.»
وبعد فترة طويلة من الصمت أخذ ابن البروفيسور خلالها يتفحص ماريتا ، ثم استأنف حديثه:
«انني أعترف بذوقه. ربما يفتقر أبي الى الحكمة، ولكنه يمتاز بالذوق.»

الفصل الاول

قالت جوزفين نيوبل لابنتها:«ولكن يا حبيبتي، انه يكبرك كثيراً بل هو اكبر مني.»
ردّت عليها ماريتا وهي تبتسم وتغلق حقيبة سفرها:«استمري يا أماه، وأكملي كلامك وقولي ان عمره يقارب ان يكون زوجاً لك.»
ضمت أمها وقبلتها على خدها الخالي من التجاعيد وهي تقول:
«أرجو ان تفهمي ان لا شيء هناك بيننا على الاطلاق.»
ردت عليها جوزفين قائلة وهي تقطب جبينها قلقاً:
«اذن بماذا تفسرين هذه الدعوة لقضاء اجازة الصيف معه؟»
لم تتمكن ماريتا ايضاً من الاجابة على هذا السؤال، فقد كانت مندهشة كوالدتها تماماً، فهزت كتفيها وقالت:«لأنني اعمل في القسم الذي يرأسه.»
«ولكنك لا بد ان تعترفي بأنك عضو صغير بالقسم. كما ان مجرد مساعدة في المعمل لا يعد مركزاً مهماً في السلم الوظيفي.»
فتنهدت ماريتا وقالت:«اعترفت من زمان بذكائي المحدود.»
ولكن جوزفين ردت تقول:«يا حبيبتي الذنب ليس

ذنبك لتركك المدرسة قبل اتمام امتحاناتك فلولا وفاة والدك...»

«لكنت اصبحت في القمة يا أمي العزيزة... سمعت هذا الكلام من قبل. وأعدك بأن التحق بالدراسات الليلية في الفصل الدراسي المقبل واجتهد لاكمل ما بدأته من دراستي.»

«ماريتا... بلغت الرابعة والعشرين ولن يمضي وقت طويل قبل أن...»

ضحكت ماريتا وأكملت الكلام تقول:«أتزوج؟ ليس هناك من أفكر فيه الآن، جيمس لطيف ومستقيم وصالح، لكنه لا يحرّك عاطفتي.»

«اذن يبقى البروفسور تيودور أليس كذلك؟ فلا تقولي انه دعاك الى منزله لمساعدته في العمل.»

«انا لست مؤهلة لذلك.»

«اذن انه مهتم بك لشخصك، اعرف اساليب الرجال يا عزيزتي.»

«حتى ولو كان في الثانية والخمسين من عمره؟»

«وخصوصاً اذا كان في الثانية والخمسين من عمره. انني أبلغ من العمر الثامنة والاربعين، والرجال في هذه السن، ولا سيما الارامل مثله، يحتفظون بكل قواهم العقلية وشعورهم وعواطفهم.»

ضحكت ماريتا واحتضنت والدتها وقالت:

«سوف تصفين لي حياة الطيور والنحل كذلك.»

«سمعتا جرس الباب يدق وبعدها ساد سكون...

فهمست جوزفين تقول:

«لقد وصل.»

قالت ماريتا:«اذهبي للقائه فانا نسيت ان اغلق الحقيبة.»

وأخذت تغلق حقيبتها ثانية عندما سمعت والدتها وصوت البروفسور يصلان اليها من السلم. كانت والدتها ترحب بقدوم الضيف بخجل وتذكرت ماريتا ان والدتها لم تقابل أستاذاً من قبل. اما الصوت الثاني فكان سريعاً ودقيقاً يعكس شخصية البروفسور ومجرى تفكيره.

ومما لا شك فيه ان والدتها كانت منبهرة بلقاء هذا الشخص الموموق. وكان نداؤها من الدور الأول وهي تقول: لا تجعلي السيد... الدكتور... البروفسور تيودور ينتظر، لا يدل على مدى اضطراب والدتها فحسب بل، لدهشة ماريتا كان بمثابة صرخة لطلب المساعدة والنجدة.

كانت والدة ماريتا تعتبر مضيفة ممتازة في حياة زوجها الذي كان يتبوأ مركزاً مرموقاً في عالم الصناعة، ولم تكن تتأثر بمقابلة الناس ولكن هذه المرة شعرت بأنها تشذ عن هذه القاعدة.

منذ سنوات مضت بدأت ماريتا تعمل في قسم البروفسور تيودور وكانت تعد نفسها محظوظة لتعيينها في هذا المركز العلمي بالرغم من كفاءتها المحدودة.

كما كانت والدتها تسمعها تذكر بكل احترام هارفورد تيودور، وتسمع الكثير عن كل اعماله

ومنجزاته. لكن ماريتا كانت تعتقد ان والدتها تعجب منه ولا تتصور انها سوف تقابله في يوم ما.
وأثناء نزول ماريتا السلم كانت تفكر انه بالرغم من بلوغ تيودور الثانية والخمسين من عمره، لا بد للمرء ان يعجب بشخصه.
فهو ذكي لامع بنظراته الشاملة وهو يتلقى المعلومات وينسقها في ذهنه. ثم تظهر النتائج لتوها، كما انه وسيم يجمع الذكاء والكياسة: طويل القامة، موهوب تدل حركاته السريعة على حيوية زائدة، ويتخلل شعره بعض الشعرات البيضاء، اما لحيته المدببة فهي تناسبه تماماً.
ولما جلست ماريتا في مقعدها في السيارة راحت تتساءل:«هل حقاً البروفسور تيودور مهتم بها شخصياً؟ فالامهات دائماً يتخيلن اشياء لا وجود لها.»
بدأ كل شيء في يوم بالمعمل وقت الغداء وماريتا تطل من النافذة، بينما كان جيمس مهتماً بإحدى التجارب العملية حين سألته ماريتا:
«ما اسم ذلك الطير يا جيمس؟ انا لا يمكنني التفرقة بين الطيور.»
فسمعت صوتاً يرد عليها قائلاً:«انه العصفور الأسود آنسة نيويل، واذا دققت النظر قليلاً لعرفت ذلك.»
التفتت ماريتا لترى وجه البروفيسور تيودور فقالت:«آسفة ظننت انني اخاطب جيمس ولكن هل تفهم في حياة الطيور يا بروفيسور؟»

فرد برقة قائلاً:«أمارس هواية الاهتمام بالطيور في وقت فراغي لأنها هوايتي وموضع اهتمامي، ولدي منزل كبير في الريف الجأ اليه في عطلات نهاية الأسبوع وفي اجازاتي. للمنزل حديقة واسعة جميلة، ومكان اختبىء فيه فأرى الطيور بينما هي لا تراني.»
ومن يومها اصبحت ماريتا مهتمة تدريجياً بهواية البروفيسور تيودور ثم أعارها كتاباً يمكنها ان تتعرف على الانواع المختلفة من الطيور، وقد حدث مرة ان عاد مبكراً من الغداء فاصطحبها في حرم الجامعة حيث كان يعرفها على الطيور الموجودة هناك، ويخبرها عن عاداتها في بناء أوكارها وطرق هجرتها. ثم تبع ذلك الدعوة الى منزله. وقد ادهشتها تلك الدعوة لكنها قبلتها على الفور. اذ قال لها بحماسة:
«سأريك المخبأ الذي أراقب منه الطيور آنسة نيويل. وبإشرافي سوف تصبحين مرجعاً مثلي في دراسة الطيور.»
قالت والدتها:«انه يهتم بك لشخصك.»
لكنها كانت مخطئة في ذلك... وكلما قرب الطريق الى منزله نقص الشعور بالتباعد الذي سببه علو السلم الوظيفي الذي يتبوأه.
لقد خلع ثوب العلم والمعرفة وأصبح انساناً عادياً يتكلم في كل شيء، مثل عملية الشراء من متجر القرية عندما تنسى مشرفة منزله السيدة فيسك،

شراء بعض ما كتبته في قائمة المشتريات.
ولكن ماريتا لم تتخلص نهائياً من الشعور بالهالة التي تحيط به، فهي الآن تجلس بجوار الرجل الذي كانت الى وقت قريب تعتبره ينتمي الى عالم آخر غير عالمها، فقد وضع كتباً اعتبرها معاصروه قمة في مادتها، وأوصى خبراء التعليم باستعمالها كتباً دراسية.
ان البروفيسور تيودور يعتبر خبيراً عالماً في فرع هام من فروع مادة تنقيةالمعادن، ولذلك اختير عن جدارة كي يكون استاذاً لمادة تنقية المعادن لسنوات طويلة وفي سن مبكرة نسبياً، كما كانت مؤهلاته عالية.
وكانت ماريتا تفكير وهي تصغي له وهو يتكلم عن منزله ومزاياه انها لا تعرف عنه شيئاً الا انه أرمل لسنوات طويلة، ولم يشر قط الى ان له أسرة ولذلك استنتجت ان ليس له اولاد.
وانعطفت السيارة في زاوية معينة بالنصف الشمالي من ممر السيارات. وكانت السيارة كبيرة وبراقة زرقاء، لكن المنزل هو الذي أدهش ماريتا لفخامته وحجمه وعراقته، فلا بد انه بني منذ اكثر من مائتي سنة. وكان مبنياً بالطوب الأحمر، والنبات يتسلق جدرانه ويضفي جمالاً على لونه.
ثم اشار البروفيسور تيودور الى شعار العائلة المعلق فوق نوافذ الدور الثاني وقال:
«هذا الشعار ليس لي بل يخص مالك المنزل الأصلي

فقد اشتريت المنزل من أحد ورثته، سيدة توفي زوجها وأرادت ان تتزوج ثانية بعدما تتخلص من مسؤولية هذا المنزل الضخم. وقد كنت سعيد الحظ لأني ورثت عن جدي الثري المال لأشتري مثل هذا المنزل.»
ترجل من السيارة واستدار ليفتح بابها وأردف يقول:«يمكنني جعل هوايتي في مراقبة الطيور تملأ كل قلبي.»
فسألته ماريتا: «وهل تسافر يومياً الى الجامعة من هنا؟»
ضحك وهو يرى في هذا السؤال سذاجة لطيفة ثم رد يقول:«لا، لي شقة بجوار الجامعة. ولكني اعود الى هنا في عطلات آخر الاسبوع.»
«انتظرت ماريتا حتى احضر البروفيسور تيودور امتعتها من السيارة، قال وهو في طريقه الى مدخل المنزل: «أرجو لك إقامة طيبة هنا معي.»
ابتسم وهو يفتح لها الباب الضخم وقال:
«انني اتطلع الى تدريس تلميذتي المجدة الجديدة مادة العناية بالطيور، وبث روح الحماسة والحب التي اشعر بها نحو هذه الهواية في نفسها.»
ولكن ماريتا شعرت ببعض القلق، فربما خذلته بعدم اهتمامها الاهتمام الكافي الذي ينتظره مقابل كرم دعوته لها، وأقسمت ان تقرأ كل كتاب يعيره لها.
وجدت البهو واسعاً مهيباً، وسقفه عال، وأرضيته الخشبية تلمع من نظافتها. ظهرت سيدة طويلة القامة وابتسمت لماريتا، ثم مدت يدها قائلة:

«انا السيدة فيسك، مشرفة منزل الدكتور تيودور، الدكتور هارفورد تيودور...»

ولاحظت ماريتا ان السيدة فيسك، ركزت في النطق على اسم الدكتور الأول، ولكن لم تعر الأمر اهتماماً لانشغالها بما حولها من اشياء جديدة.

وحملت السيدة فيسك حقيبة ماريتا قائلة للبروفيسور:«جهزت حجرة الضيوف كما أمرتني يا بروفيسور تيودور.»

فأومأ برأسه وربت بيده على كتف ماريتا قائلاً:

«موعد العشاء في السابعة، لكن اذا احتجت الى الراحة فيمكن تأجيل موعده...»

هزت رأسها ضاحكة وهي تقول:

«السفر في سيارتك لمدة ساعة او ساعتين ليس بالأمر المتعب.»

جاراها في الضحك كتقديره لهذا المزاح... ثم قال لها:«عندما تفرغين من تغيير ملابسك، الحقي بي في غرفة الاستقبال الرئيسية.»

تبعت ماريتا السيدة فيسك الى السلم، وفي المنحنى نظرت بدون ان تدري الى تيودور فرأته واقفاً يتابع صعودهما وهو ينظر اليها في تفكير عميق. ففسرت هذه النظرة بأنه يسأل نفسه ان كانت ستتمتع بوجودها في هذا المنزل مع رجل يشكو من الوحدة.

وجدت غرفة النوم واسعة، أما المدفأة فمزينة بنقوش ورسوم متداخلة.

كان الاثاث ينتمي الى العصور القديمة والصور

تعكس تلك العصور، ووسط السقف ثريا من الكريستال المزخرف.

ووجدت السرير عبارة عن أريكة عصرية كأحدث ما تعرضه محلات الأثاث، اما منضدة الزينة والخزائن فكلها من الخشب المزخرف برسومات الورود المتداخلة وانعكست هذه الرسومات في الستائر التي كانت تتمايل مع النسيم وتلتف حول نافذتي الغرفة في إطار جميل. وعلى جانبي المدفأة مقعدان اضفيا على المكان جواً يوحي بالشعور بالراحة.

رأت ماريتا من باب جانبي جزءاً من الحمام فشعرت بسرور عظيم، ولما دخلته اكتشفت انه كان غرفة لارتداء الملابس ملحقة بغرفة النوم في الماضي، ثم حوّل الى حمام خاص ملحق بحجرة الضيافة.

تذكرت كلمات البروفيسور وهو يقول لها، عندما تفرغين من تغيير ملابسك. توقعت ان يكون من عادته إرتداء الملابس الرسمية اثناء العشاء. فأخرجت من حقيبتها تنورة منقوشة بالزهور وبلوزة بيضاء بدون اكمام مصنوعة من الدانتيلا.

كان البهو ساكناً عندما نزلت ماريتا الدرج بهدوء، وعندما وصلت الى نهايته سمعت من بعد اصواتاً كثيرة وداعبت أنفها رائحة الطعام الشهي، فشعرت بالجوع الشديد يلاحقها ويمتزج باضطراب مشاعرها،

ارتجفت ولامت نفسها لجوعها لأنها لم تتناول شيئاً

منذ وجبة الغداء. ثم عبرت البهو الى باب مفتوح قليلاً وسألت نفسها هل دعاها مضيفها لموافاته في غرفة الطعام ام في غرفة الاستقبال، لم تجده في غرفة الطعام لكنها لم تتراجع، فالغرفة لم تكن خالية اذ رأت رجلاً يدير ظهره ويطلّ من إحدى النوافذ. له قامة طويلة وشعره البني الفاتح يتموج حتى ياقة قميصه المخطط كان يضع إحدى يديه في جيب بنطلونه ويمسك بكوباً بالأخرى.

كانت ماريتا قد دخلت بهدوء فلم يشعر بها. وظنت انها اذا حبست أنفاسها وتراجعت من الغرفة بدون ان تستدير ربما امكنها الهرب من الغرفة بدون ان يراها.

يبدو انه قد سمع خطواتها فاستدار اليها. ثم ارتسم على وجهه تعبير دهشة شديدة شلّت حركة رئتيه فلم يتكلم، كما ضاقت عيناه وقطب حاجبيه الكثيفين الداكنين، وكان أنفه مستقيماً وفمه واسعاً وتتسم شفتاه بالسخرية. وربما بالمرارة.

شعرت ماريتا انها ارتكبت ذنباً فأصلحت من وقفتها. وتساءلت عمن يكون ذلك الرجل الذي أصابها بذلك الشعور الجارف بالذنب؟ شعرت انها ربما اخطأت بحضورها الى هذا المنزل ولكن عقلها هداها بعكس ذلك لأن البروفيسور تيودور دعاها الى منزله ولها الحق بالبقاء فيه بالرغم من نظرة عدم الترحيب التي تراها في عيني هذا الشاب الرماديتين.

وبدأت تقول:«أنا آسفة.»

كان هذا كل ما امكنها قوله ثم أردفت تقول وهي تتراجع:«سوف أذهب فلم يكن في نيتي ان اضايقك.»

«اذن انت صديقة والدي؟»

«صديقة البروفيسور تيودور؟»

«ألم يذكرني أبي لك؟ ولكن هذا لا يدهشني فقد حاول ان ينسى ذلك لمدة اثنين وثلاثين عاماً.»

وبعد فترة طويلة من الصمت أخذ ابن البروفيسور خلالها يتفحص ماريتا ، ثم استأنف حديثه: «انني أعترف بذوقه. ربما يفتقر أبي الى الحكمة، ولكنه يمتاز بالذوق.»

شعرت ماريتا بالجمود ولاحظت انه كلما شعرت بالتوتر أخذ هو يشعر بالارتياح فقالت له:

«اني آسفة يا سيد تيودور، لأنني لا أفهم ماذا تقول.»

«اسمي رايان. كل صديق لوالدي هو صديقي. دعيني أقدم لك شراباً...»

ثم اعتدل في وقفته وعبر الغرفة الى منضدة صفت عليها زجاجات الشراب المختلفة.

«أنا لست صديقة والدك، ولكني أعمل في القسم الذي يرأسه.»

«انك تدهشينني.»

استند على المائدة وقال:«انك متعلمة وجميلة، ولك مزايا كافية ان تجعلك تتقاربين مع مستوى أبي الرفيع. انه يشترط ان يعمل مع النخبة من المساعدين الأذكياء أخبريني عن مستوى ذكائك.»

قال ذلك وهو ينظر اليها بتكاسل، وتدل نظراته انه يهتم بأشياء أخرى بجانب ذكائها.

فقالت له:«انا مساعدة في المعمل.»ولكنها كانت تتمنى من كل قلبها ان تمحو من عينيه تلك النظرة التي لا تكن لها الاحترام، والتي كانت لسبب غير مفهوم تشدها اليه.

انفجر ضاحكاً وهو يقول:«مساعدة في المعمل؟»

«احمر وجه ماريتا غضباً، وشعرت انها اوشكت على البكاء.

وسمعته يقول:«هذا غريب مثل الأمير والخادمة. البروفسيور ومساعدة المعمل الصغيرة.»

ارتجفت شفتا ماريتا وراح ينظر اليها. غابت ابتسامته وحلت مكانها نظرة اهتمام. وعندما تلفتت لتجد مكاناً تضع فيه كوبها اقترب منها وقال وهو يضع يده على ذراعها:«لا... لا دعينا نشرب نخباً اولاً.»

فجاهدت كي تحافظ على كرامتها وعلى هدوئها وردت قائلة: «شكراً. ولكني لن أشرب معك نخباً.»

ابتسم ابتسامة غريبة وقال:

«تعالي، فقد نتآلف في المستقبل من غير ان ندري... ومن يدري ماذا يخبئ القدر لنا. ان في ذهني شيئاً هو شيء ملهم. ولكني سوف احتفظ به كسرّ من الاسرار. فالى المستقبل آنسة...»

ورفع حاجبيه يطلب الرد.

«نيويل...»

«آنسة نيويل، الى المستقبل الذي لا يصدقه عقل.»

وبينما هما يشربان النخب سمعا صوتاً عند الباب يقول:«الدكتور تيودور يا عزيزتي، اقدم لك الدكتور ريان تيودور.»

استدارت ماريتا وقالت:«الدكتور تيودور؟ وهل هناك اثنان؟»

فقال الابن:«انه شيء يدعو الى الحيرة، فكلانا حاصل على دكتوراة في الفلسفة وهي موجودة في نطاق العائلة.» ثم قال الأب وهو يضع يده على كتف ماريتا:

«ان مؤهلات ولدي العلمية تتساوى مع مؤهلاتي...»

«ولكن المادة تختلف.»

فرد الأب يقول:«لكل منا عالمه.»

«أبي كما تعرفين متخصص في تنقية المعادن.»

«وابني جيولوجي.»

اذن فان هذا الرجل موهوب كأبيه، وذكاؤه حاد مثله وإدراكه قوي، ولكن هل كان في حكمة أبيه وقدرته على وزن الأمور؟ وهل هو يتسم بالنضج الذي ينظر به الى الاشياء وفهمها؟

«انك مستغرقة في افكارك يا آنسة نيويل. هل يقلقك ان تمضي فترة اجازتك في صحبة عملاقين من عمالقة الفكر؟ اذا كان هذا الامر يقلقك فأرجو ان تشعري بالراحة، فنحن في المنزل، كما ترين، شخصان عاديان ولا اكثر من ذلك، وخصوصاً في صحبة امرأة.»

كان يقول ذلك وهو يبتسم ولكن عينيه ظلتا جامدتين.

اذن فهذا منزل رايان تيودور كما هو منزل والده، فهل ستتوافق إقامته مع إقامتها هنا؟ ان هذا الخاطر قد اقلقها وضايقها.

أخذ رايان الكوب من يدها قائلاً: «سآتي لك بأخرى. وماذا تشرب يا أبي؟»

فرد عليه البرفيسور قائلاً:«كالمعتاد، وشكراً.»

ثم طلب البروفيسور من ماريتا ان تجلس بجانبه ووضع الوسادة وراء ظهرها، كانت تصرفاته تدل على انه يريد ان يرضيها. ثم ابتسم وسألها:

«هل تشعرين بالراحة يا عزيزتي؟ وهل تحتاجين الى وسادة أخرى؟»

وقف الابن أمامها ليقدم لها العصير، وقع نظرها على وجهه فاذا به يبتسم ابتسامة تختلف عن ابتسامة أبيه، ثم يوجه كلاماً كله سخرية كابتسامته.

«هل تريدين ان تأتي لك مشرفة المنزل بمسند تضعين عليه قدميك يا آنسة نيويل؟ وهل نستخدم خادمة خاصة لك طوال مدة اقامتك هنا؟ وهل نفرش لك الأرض ببساط احمر اينما ذهبت؟»

صاح والده وصوته يرتجف من الغضب:«رايان.»

«ادركت ماريتا والخجل يكسو وجهها من سخرية الشاب، ان الأمور لا تستقيم بين البروفيسور وابنه. أرادت ان تغير من الحديث فسألت مضيفها متجاهلة الشاب:«كم عمر هذا المنزل؟»

«حوالي مئتين وخمسين عاماً. وقد تغيّر طراز هذه الغرفة في مطلع القرن الماضي، وقسمت الى غرفتين، أشغل الأخرى كمكتب لي. هذه الاريكة من طراز شيبا نويل، وخزانة الكتب من الطراز الجيورجي والمنضدة مصنوعة من خشب الجوز وترجع الى القرن الثامن عشر، اما المرآة فهي من طراز الملكة آن ومعظم هذه القطع اشتريتها مع المنزل نفسه.»

«انها كلها جميلة.»

«هذا المنزل يمتاز بالبساطة بخلاف غيره من منازل ذلك العصر وكان ذلك من الاسباب التي جعلتني اشتريه، فان البساطة تروق لي.»

تساءلت ماريتا: هل تخيلت ان عينيه ظلتا معلقتين بوجهها أم هذا هو الواقع.

ثم قال رايان وصوته يقطر سخرية:«البساطة تريح رأس أبي المعقد. ولذلك...»

أحجم عن ان يكمل كلماته فجأة. فهل أخافته نظرة التحدي التي رآها في عيني والده؟

ثم قال لها:«هل تروق لك الاشياء القديمة يا آنسة نيويل؟»

لاحظت انه ركز على كلمة قديمة قليلاً.

ثم نظرت اليه فجأة. وللمرة الثانية لاحظت ابتسامة السخرية على فمه.

فردت تقول:«انني أراها في نافذة العرض فقط يا دكتور تيودور.»

«وهل تفتقرين الى المال لتحصلي على الكماليات؟»

«انني، كما أخبرتك، مساعدة في معمل فقط.»
وحاولت ان تتفادى نظراته.
«لا بد ان أهلك ينتمون الى اصحاب المداخيل الكبيرة.»
رد والده يقول:«رايان لا يجب ان...»
فتدخلت ماريتا وهي تنظر اليه وتبتسم ابتسامة تحد:«أبي توفى منذ سنوات مضت وأعيش الآن مع والدتي... استمر في اسئلتك يا دكتور تيودور.»
رفع رأسه وضحك عالياً وأخذ يرشف من شرابه ثم ينظر اليها مفكراً يملأه الفضول وقال:
«سآخذ بكلامك وأسألك سؤالاً آخر الا تعتقدين انك اكبر قليلاً من ان تكوني مساعدة في معمل؟»
رد والده يقول:«كبيرة يا رايان؟ ماذا تقول، انها في الرابعة والعشرين فقط، ان بعض المساعدين عندنا أكبر كثيراً من ماريتا.»
لم تتحول عينا رايان عن وجه ماريتا وقال:
«ربما لم أحسن التعبير في سؤالي هذا. وربما قصدت ان أقول انك اكبر من ان تظلي بدون زواج. انك جذابة للرجال.»
فهب البروفيسور تيودور واقفاً وهتف يقول:«رايان!»
بان الغضب الذي كان يشعر به وكأن ابنه اعتدى على كل شيء يخصه، ولم تقو ماريتا ان تبقى جالسة تتحمل الاهانة من اسئلة ابن البروفيسور تيودور المغرور، فوقفت وعيناها تقدحان شرراً وقالت:

«لم أتزوج لأنني لم أقابل الشخص الذي يروق لي والذي يجعلني أفكر في تمضية بقية حياتي معه.»
«هل هذا صحيح؟»
«نعم.»
ودق جرس العشاء ينبه الموجودين ويرسل دقاته الى كل غرف المنزل ويعدهم انهم سيجدون الألفة حول المائدة التي تنعكس على ضوئها أنوار الشموع والكؤوس. ويجدون الصحبة الهينة والحديث العذب.
ووجدت ماريتا ما توقعته.
فكانت المائدة من الخشب الداكن تتسع لجلوس ستة اشخاص.
وتولت السيدة فيسك تقديم الطعام بمهارة أما الشراب فقد وزعه البروفيسور بنفسه. وبقي رايان معظم الوقت صامتاً لا يعبر وجهه عن شيء، وكان كل اهتمامه منصباً على الطعام الذي يأكله.
لم يفته ملاحظة الاهتمام الذي كان والده يغدقه على ضيفتهما، فأخذ هارفورد يسأل ماريتا مرات اذا كان الطعام يروقها. وهل تطلب شيئاً آخر؟ وهل اعطتها السيدة فيسك كفايتها من الطعام أم زادته قليلاً او انقصته قليلاً؟
كانت ماريتا جالسة الى يمين تيودور، ولم ترفع عينيها مطلقاً لتنظر الى ابنه الجالس تجاهها. ولكن عندما قارب العشاء ان ينتهي اقترح تيودور ان يشربوا نخباً، ثم قال هارفورد
«الى صديقتي الصغيرة ماريتا.»

وقال رايان:«الى صديقة والدي الصغيرة، الصغيرة جداً.»

ثم وجه كلامه الى والده:«الآنسة نيويل تنكر انها صديقة لك...»

ولكن لماذا أراد ان يسخر من والده ويتحداه؟

«في الحقيقة عندما دعوتها بصديقتك احتجت لذلك وأصرت انها واحدة من اصغر موظفيك الذين يعملون في معملك.»

ألقى رايان على أبيه نظرة ليرى تأثير كلامه عليه، ولكن هارفورد أعد جوابه بكل عناية. فوضع فنجان القهوة على طبقه في الوسط تماماً ثم تناول الملعقة وبدا وكأنه يدرس معدنها بعناية ثم وضعها ثانية وبعد ذلك اخذ يتحسس لحيته. ثم قال اخيراً:

«موظفة؟ لا اني أفضل كلمة مساعدة. صغيرة؟ بالعكس فهي الواسطة الهامة في سلسلة تعليم الأسس التي يرتكز عليها القسم بل أي قسم علمي. وهي مهمة كالنواة الصلبة.»

ضحكت ماريتا وملأ وجهها الخجل وقالت:

«انك تخجلني يا بروفيسور تيودور.»

وفي الوقت نفسه كانت تلاحظ اهتمام رايان بكلامهما.

«لكن اذا تركت العمل؟»

«سوف نبحث عن شخص آخر كي يشغل محلك وفي كل حال انا مقتنع بعد معرفتك تلك المعرفة البسيطة، أن إمكانياتك الذهنية اكبر مما اتصور.»

«انه كرم منك ولكن...»

«كرم؟ اني لا اتكلم عن الكرم بل وصلت الى هذه النتيجة بعد الملاحظة والنتائج الموضوعية.»

سمعت رايان يتمتم بسخرية ويقول:

«اهنت مكانة والدي العلمية يا آنسة نيويل، وكما ترين ان العالم يفكر بطريقة موضوعية محايدة في كل المواضيع... فهو يبعد نفسه عن أي مشكلة تقابله ثم يفصل فيها كشيء قائم بذاته، حتى كل عواطفه وشعوره وحبه اذا كان سيء الحظ وترك لنفسه العنان كي يخضع لهذه العاطفة، فهو يبتعد ويحكم على الاشياء بهدوء وبدون تحيز وبطريقة علمية. وأنا كعالم أعرف الاشياء من التجارب.»

«تجارب يا دكتور تيودور؟ انني مندهشة لعدم اتباعك الأسلوب العلمي كي تنمي عاطفة الحب لغيرك لا لنفسك فقط.» الشمس التي تسطع من النوافذ.

ضحك الأب وشعر الابن بالهزيمة ثم قال الاب:

«أحسنت وصفه يا مارينا. لقد قام بمغامرات كثيرة. ولكنه اعترف لي مرة أن الحب لم يمس قلبه ابداً... النوع الآخر من الحب لرجل في سنه أمر ملمّ به. ولكن الحب الدافىء العميق لم يعرفه. ولذلك أحسن صنعاً انه لم يتزوج، فهو لا يعرف معنى الاخلاص.»

تلاقت نظراتهما في غضب حرب لا هوادة فيها، وكان من الواضح ان المرارة التي يشعر بها كلاهما لها عمق سحيق وأن كليهما قد جرح من الآخر فراح يخفي ذلك الجرح.

وعرفت كذلك بغريزتها وبإحساسها الداخلي ان وصولها الى هذا المنزل قد عمق الخلاف. فشعرت بالخوف.

الفصل الثاني

دخلت السيدة فيسك الغرفة ومعها مزيد من القهوة ساعد على تخفيف حدة الصمت الذي ساد جلستهم.
قام البروفيسور تيودور من مقعده وانحنى قليلاً نحو ماريتا وقال:
«ارجو ان تأذني لي بالانصراف يا عزيزتي.»
وراح ينظر الى النافذة بشوق وحنين كأنه سجين يعد الدقائق حتى ينطلق حراً ثم قال:
«طال بعدي عن منزلي على غير عادتي فلا بد ان ارجع الى مخبأ مراقبة الطيور.»
ووضع يده على ذراعها وأبقاها لبرهة ثم ذهب.
سمعت ماريتا رايان يقول هامساً: «والدي ترك لي العناية بالطفلة.»
وركز على الكلمة الأخيرة مما جعل الدم يندفع الى وجهها ثم اردف يقول:«فماذا أفعل بها؟»
كانت ماريتا متأكدة ان تسعة من عشرة من النساء يهرعن اليه فاتحات أذرعهن له. وقالت لنفسها سأكون انا العاشرة التي تشذ عن هذه القاعدة، وسأبقى ثابتة ولن اتخذ اي خطوة نحو ذلك الرجل سواء كانت معنوية ام مادية. وعندما اقترب منها

www.elromancia.com

قامت ماريتا واقفة ووضعت المقعد في مكانه لكنها نظرت اليه الآن وعيناها تقدحان شرراً. ثم قالت له:
«ارجو الا تشغل بالك بي يا دكتور تيودور. فامضي في عملك او تسليتك وكأني غير موجودة.»
«عملي يمكن تأجيله. اما تسليتي فأظن انت او ابي لا ترضيان بها او توافقان عليها.»
استدارت وسارت تجاه الباب وسمعته يقول:
«الى اين انت ذاهبة؟»
«الى حجرتي، فلم أفرغ حقيبتي بعد.»
«أجّلي ذلك قليلاً. وتعالي لتري المنزل؟ سوف اصحبك الى ارجائه وتتعرفي عليه.»
كانت نبرات صوته الآن قوية مما جعلها تطيعه لتوها.
لحق بها عند الباب ثم وضع يده فوق ذراعها بخفة تماماً كما فعل والده، لم تؤثر لمسة والده عليها البتة، أما تلامس ذراعها بيد ابنه فقد سبب لها شعوراً بالرجفة ولم تملك الا التراجع ولم يخف تعجبه لأمرها.
سبقها الى البهو وهو يقول:«دعيني اريك الطريق.»
دفع احد الابواب المنقوشة وقال:«هذا هو مكتب والدي.»
وكما قال البرفيسور تيودور كان مكتبه جزءاً من غرفة الجلوس، وبالرغم من تناثر الأوراق ووجود رزم المجلات واكوام الكتب الموضوعة على مكتبه بجانب أقلام الرصاص ورسومات الطيور، فان الحجرة ما

زالت تحتفظ بطابع من وقار يميزها وحدها. وبما انها كانت جزءاً من غرفة الاستقبال الكبيرة الفخمة فلم تفقد عراقتها كلها.
قال رايان:«ليست لدي النية لأصف لك بدقة كل قطعة من قطع الاثاث وأذكر لك تاريخها.»ثم اغلق باب المكتب وفتح باباً ثانياً وقال:«هذه الغرفة كانت معروفة بغرفة الاستقبال، وهنا يمكنك ان تشعري بالماضي يحيا ثانية، فوالدي أصر على بقائها كما هي كي تحتفظ بالماضي.»
رفعت ماريتا عينيها الى السقف الذي اخذت نقوشه تتواصل وتلتف حتى تصل الى وسطه حيث تتدلى ثريا الكريستال البراقة.
ثم يطوف نظرها بالمنضدة والمقاعد ذات القيمة التاريخية العظيمة، والى حيث كانت تعلق صور اصحاب المنزل القدامى لكنها وجدت صورتين. الأولى خاصة بالبرفيسور تيودور نفسه عندما كان في الثلاثينات من عمره والأخرى لرايان تيودور. ربما رسمت له منذ عشر سنوات.
وقفت ماريتا تنظر الى عيني الرجل في الصورة فوجدت ان عيني رايان حتى في تلك السنة جعلتاها تغض من نظرها.
ثم قالت:«انني لا اجد صورة...»
«والدتي توفيت بعد مولدي بساعات قليلة.»كان يتكلم ببرود وعدم اهتمام. وكانت ماريتا تود ان تعرف كيف توفيت والدته ومن تولت تربيته.

قال لها:«هل نظرت بما فيه الكفاية الى صور العائلة؟ وهل كنت تتمنين من صميم قلبك ان يكون والدي الآن في السن التي يبدو فيها بالصورة؟»

التهب وجهها خجلاً وقالت:

«انني لا اعرف ماذا ترمي اليه يا دكتور تيودور؟»

«هل ننتقل من هنا؟»

استمر في إيلامها غير مبال بشعورها، فهو المسيطر في كل المواقف وهو المعتدي دائماً..

صعدا السلم. يتقدمها رايان وقد لزما الصمت ولما وصلا الى احد الأبواب أشار اليه رايان وقال:«هذه هي غرفة ابي.»

كان من الظاهر انه لم يكن لديه النية كي يريها حجرة والده من الداخل ولما وصلا الى الباب التالي قال لها:«هذه هي حجرة السيدة فيسك.»

ادار مقبض الباب في الممر نفسه، ودعا ماريتا للدخول وهو يبتسم ويقول:

«السيدة فيسك تنفض يدها من حجرتي أثناء وجودي هنا اذ لا تبدي اي محاولة لتجعل الغرفة بالغة النظافة كما تجعلها في غيابي.»

وكانت غرفته واسعة كبقية غرف المنزل، لكنها تخلصت من العراقة التي اكتسبتها طوال اكثر من قرنين وتحولت الى غرفة للنوم، وللجلوس وللعمل معاً، ومما لا شك فيه ان شخصية صاحبها كانت تنعكس عليها، فك ربطة عنقه وراح يراقبها باهتمام وعيناه شبه مغمضتين.

شعرت ماريتا في الوقت نفسه انها تحترق تحت نظراته، أدركت ونبضها يسرع مدى جاذبيته. ولم يرجع ذلك لوسامته فحسب، بل لقامته الفارعة وكتفيه العريضتين وسخريته وقوته المؤثرة. شعرت بأنه يجذبها اليه بقوة ذهنه ويملي عليها ارادته الخارقة كي يشدها الى الفراش وأصبح كل ما عليه ان يمدّ يده ويجذبها اليه. ثم...

كانت ماريتا غاضبة من نفسها ومن احمرار وجهها الذي ينم عن أفكارها فأدارت ظهرها اليه، ولكنه لم يكن جاهلاً بالحرب في نفسها بل هو يعرف تماما بما تشعر به وسمعته يهمس من السرير قائلاً:

«لا.»

فردت تقول:«لا.» ثم ذهبت الى النافذة وأخذت تنظر الى ممتلكاتهم الواسعة.

سمعته يهمس ويقول:

«تجاربي دلتني على ان النساء عادة لا يبدين اي صعوبة امامي. ولكن البعض يحتجن الى بعض الوقت أو الملاطفة.»

«انا اختلف عن ذلك الصنف الذي تعرفه من النساء.»

فقال وهو مغمض العينين:«ليس بين النساء من تختلف عن ذلك، ففي هذه الايام ما علينا الا ان نشير بأصابعنا حتى يأتين الينا ثم يطلبنا ما شئن...»

قالت وهي تقطب:«وهل يحصلن على ما يطلبن؟»

رد يقول باختصار:«انا رجل...»

www.elromancia.com

مرت فترة قال بعدها:«هل صدقت ما قاله والدي عني اثناء العشاء؟»

«ان الحب الحقيقي لم يمس قلبك؟ وأنك لم تشعر بدفء الحب النقي وبالعاطفة العميقة؟ نعم صدقته فتصرفك منذ ان قابلتك يدل على ذلك. في وسعي ان اقرأ شخصية الغير بسرعة فائقة.»

ضحك عالياً وفتح عينيه ليهزأ بها ثم قال:

«مساعدة المعمل الصغيرة تحوّلت الى محللة نفسية في لمحة عين وهل تحللين شخصية والدي؟ وهل كشفت عن افكاره المعقدة؟ وهل فسرت نواياه ورغباته الحميدة؟ وهل تعرفين كل احلامه؟»

تألمت لسخريته ثم قصدت الباب وهي تقول:

«اذا كنت فرغت من تعريفي بأرجاء المنزل...»

نهض من السرير وأصلح رباط عنقه وقال:

«ما زال هناك مكان آخر، انه في الدور الأعلى...»

وعندما وصلا الى الطابق الاعلى قال:

«هذا هو مكتبي عندما اكون هنا، حيث اعمل وأفكر في الماضي. وحيث افكر في العصر الجليدي بجانب الصخور والمعادن وبقايا الحيوانات والنباتات.»

كانت المعدات هي التي لفتت نظر ماريتا اولاً لأنها ذكرتها قليلاً بالمعمل الذي تعمل فيه.فكانت مليئة بالمجاهر والآلآت وقطع الاحجار ثم تنبهت وهو يراقب وجهها فقال لها:

«أراك مندهشة.»

«انا مندهشة فعلاً، فلديك كل هذه الآلات الرهيبة،

وكنت اظن ان الجيولوجيين يحفرون لاستخراج كنوزهم من الارض.»

ضحك لهذه الفكرة وقال:«اذا كنت تتوقعين ان تجدي هنا آلات اخرى مثل الكوريك والجاروف فأنت تقعين في خطأ عادي، فتخلطين بين الجيولوجيا والحفريات فعلماء الحفريات يتعاملون في نطاق آلاف السنين أما الجيولوجين، فيتعاملون مع آلاف الملايين من السنين.»

ثم اشار بيده وقال:«هذا هو مجهر جيولوجي يكبّر ويضيء الاشياء التي ترى من خلال أنبوبة، ولن أتمادى في تفسيره لأنه آلة معقدة حتى ان الشخص العادي لن يفهمه بسهولة، وخصوصاً مساعدة المعمل التابع للبروفيسور تيودور. ان علم البترولوجيا هو دراسة الصخور.»

ثم قصد الى آلة اخرى وقال:«هذا مجهر مصوّر مزود بكاميرا فيمكنني ان أصور به دقائق المعادن والصخور.»

ردت ماريتا تقول وعيناها تبرقان:«اين وجدت بقايا الصخور وهذه النباتات الرائعة؟»

«جمعتها من كل انحاء العالم، فحياتي مثل الرحل.»

«اذن فأنت لا تدرس؟»

«لا، انا لست مدرساً او محاضراً بل أترك التدريس الجامعي لوالدي المرموق واستخدم المعرفة التي اكتسبتها. فأنا في الأصل عالم في طبيعة الأرض.»

«ولكن أباك قال انك جيولوجي.»

«في الأصل انا جيولوجي ولكني نلت مزيداً من الدرجات العلمية في تلك المادة.»

«اذاً فانت نابغة كوالدك؟»

انحنى لها انحناءة عميقة شاكراً.

ثم سألته وهي تغامر وتتوقع ان يحرجها:«ولكن اين تعمل؟»

فابتسم وقال لها:«العالم بأسره هو مكان عملي.»

ولما قطبت قال لها:«ربما اجعلك تفهمين بوضوح اذا قلت لك انني اعمل في شركة امريكية للنفط وكعالم لطبيعة الأرض أزور اماكن مختلفة من العالم.»

«اذن لماذا تبقى هنا؟»

«رجعت لتوي من الأسكا كنت في اجازة مدتها شهران، وفي الوقت نفسه اكتب تقريراً عن منجزاتي الى رؤسائي كي تبدأ الشركة في إقامة معدات لآبار النفط.»

«انها مسؤولية كبيرة.»

«نعم ولكني أنال أتعاباً كبيرة جداً.»

«اذن عليك ان تذهب الى حيث ترسلك الشركة؟ فعملك لا يعد نظرياً.»

«كلا.»

ثم قالت له:«هل تضايقك هذه الحياة التي تنتقل فيها من بلد الى آخر؟»

هز كتفيه وقال:«ولماذا تضايقني؟ ليست لي روابط أسرية فلا زوجة ولا أولاد وليست لدي مسؤوليات سوى عملي.»

ثم ابتسم فتأكدت ماريتا انه سيقول شيئاً يزعجها:

«أنا خال من المضايقات، خال من مسؤولية النساء، ولدي المال بل الكثير منه، وأقوم بعمل احبه، وأجوب العالم. فماذا اطلب من الحياة اكثر من ذلك؟»

مدت ماريتا يدها لتلمس احد المجاهر وقالت له:

«اليست لك صديقة؟»

مد يده ذات الاصابع الطويلة. وقبض على رسغها وأبعد يدها عن الآلة التي كانت تلمسها فنزعت يدها منه وقالت غاضبة:«انا متمرسة في العمل على الآلات.»

«لكني اشك انك استخدمت هذا الصنف الفريد من الآلات. ورداً على سؤالك اذا كان كل رجل يتخذ لنفسه صديقة فهذه مسألة خاصة. نعم ان لي صديقة.»

شعرت لسبب ما ان حلقها جفّ قليلاً ثم قالت له:

«وهل ستتزوجها ذات يوم عندما تستقر؟»

«ليس لدي النية لأتزوج او استقر في مكان، لن اجعل المرأة تسيطر على مستقبلي، ولن تقبل اي امرأة ان تتحمل الحياة التي اعيشها.»

سكت فترة ثم سألها:«قولي لي ماذا تعمل مساعدة المعمل في سبيل الحصول على رزقها؟»

«أعد الأدوات التي يستخدمها الطلبة في إجراء التجارب، ثم أسجل النتائج في شكل رسم بياني، ثم أشرف على البحوث مثل بحوث الضغط في المعادن.»

«نعم هبوط المعادن الذي يسبب سقوط الجسر وما

www.liilromancia.com

شابه ذلك هذا مجال والدي وليس مجالي.»اتكأ على المكتب وشبك يديه على صدره يتفحصها، راح ينظر الى جسمها والى وجهها الجذاب، ثم لمس رأسها فابتعدت عنه وهي تتساءل: هل يلمسها متعمداً؟ وحينئذ قال:«انك تثيرينني. لك عقل يستحق الدراسة لديه القدرة على التطور والأفكار البناءة، كان يمكنك ان تبادري بالقيام بتجاربك الخاصة بدلاً من مجرد إعداد المعدات للآخرين. فماذا حدث لك؟»

نظرت الى الكتب الموضوعة فوق الرفوف التي تحيط بالغرفة، وقالت:«عندما مات والدي أجبرت على ترك الدراسة. أتمنى عندما يأتي الخريف ان التحق بالدراسة وأنال مؤهلات أعلى. على ان تكون دراسات غير نظامية.»

«ولماذا لا تلتحقين بدراسات نظامية حتى تحصلي على نتائج أسرع؟»

هزت رأسها وقالت:«ان والدتي تعمل ولكن مرتبها لا يكفينا معاً. فلا يمكنني التخلي عن وظيفتي، وقد احتاج الى وقت طويل كي اتخرج عليّ ان اتحمل وانتظر.»

«سأسألك سؤالاً كما سألتني من قبل. هل لك صديق؟»

أرادت ان تعترض على تدخله في حياتها الخاصة ولكنها تذكرت تدخلها في حياته بسؤالها. وتذكرت جيمس، فهو عالم مثل البروفيسور ولكنه اقل منه درجات وهو ماهر جداً حتى ان البروفيسور يقدره

ويجله وكان جيمس مهتماً جداً بعمله. فقط كانا يخرجا معاً احياناً وكان حديثه معها ينصب على العمل وحده، وكان يعانقها من وقت لآخر، لكنها كانت تشعر ان عقله متعلق بالعمل.

أجابت دون تردد:«اسمه جيمس هيستون وهو في السابعة والعشرين من عمره، طويل القامة، نحيل، ويكرّس نفسه لعمله دائماً، وهو محاضر في قسم والدك.»

«هل انت جادة في حبه وهل تنوين الزواج منه؟»

لسبب ما لم تشأ ان تقول الحقيقة لذلك الرجل، فاكتفت بقولها:«ربما تزوجنا. من يدري؟»

«لكنك اكدت لي على العشاء انك لم تقابلي بعد الرجل الذي تريدين ان تمضي حياتك معه.»

«انني... جيمس هو أقرب رجل الى المثالية التي وضعتها لحياتي.»

راح يسخر ويقول:«جيمس محظوظ فهل يدري بحظه السعيد؟ ومتى ستطلبين منه ان يتزوجك؟»

وفجأة قبضت يدها على قطعة من عينات الصخور، وكانت يدها تتحرك بدون ارادتها، تود ان تتفاهم بطريقتها الخاصة مع ذلك الرجل الساخر الذي لا يحتمل. ولكن ماذا ستفعل بهذه القطعة من الصخر اذا قدر لها ان ترفعها من مكانها لكن ماريتا لم تدر الا بيد قوية أخرى وقد قبضت على رسغها للمرة الثالثة في تلك الليلة، ولكن في تلك المرة لم تبد أي شفقة.

www.elromancia.com

فقال لها آمراً:«اسقطيها من يدك.»
ظل يقبض على يدها حتى بعد ان القت بقطعة الصخر.
تمتمت ماريتا باعتذار فترك يدها، وشعرت بدورة الدماء تنتظم ذراعها، وراحت تدلك جلدها المصاب وتقول وهي تحاول جهدها ان تتغلب على مهانتها وانهزامها، وفي الوقت نفسه تبدي سخريتها:
«لا بد ان هناك مزيداً من الاشياء تريد معرفتها؟»
فنظر الى شفتيها الممتلئتين بقلق والى صدرها ثم قال:«نعم ولكني اشك انك سوف تجيبي عليها. وعلى سبيل المثال هل مظهر جسمك يتناسب مع البراءة التي تظهر على وجهك؟»
قالت لتخفي خجلها:«بالنسبة الى رجل قابلته اليوم للمرة الأولى ارى ان هذه الاسئلة تعد شخصية جداً.»
تعجبت كيف يقلقها رايان عندما يكشف لها ذلك الجانب الجاف الوعر من حياته؟ ولكن لماذا يقلقها هذا الرجل؟
نظر رايان اليها ولم يشأ ان يقطع حبل افكارها، فلما قصدت النافذة ترك الصخرة جانباً ثم تبعها.
فهمست تقول:«هذا المنظر يأخذ بمجامع القلوب. انه يجعلك ترى المناظر عن بعد.»
«ولهذا السبب سميّ هذا المنزل مبنى الأفق.»
ثم اشار اليها بيده، بينما وضع يده الأخرى على كتفها، فأخذت ماريتا تجاهد كي تركز على المناظر الخارجية المحيطة بها وقال:

«الأفق يبدو من خلال الحقول والجداول.»
نظرت ماريتا مبهورة الى المناظر الجميلة ذات الألوان الهادئة، ثم همست تقول:«لا شك انك اخترت هذه الغرفة لمكتبك، فهي افضل غرفة في البيت كله.»
«انا سعيد لانك تقدرين مزاياها وتتغاضين عن الفوضى السائدة بها.»
«فوضى؟ لم الاحظ ذلك إلا بعد ان نبهتني اليها.»
فضحك وقال:«انك امرأة نادرة الوجود. معظم بنات جنسك يحاولن إصلاح هذه الفوضى.»
«وهل تسميها صديقتك فوضى؟»
انتظرت رده وهي متوترة فقال:«صديقتي جيولوجية ايضاً.»
كان ذلك رداً مقنعاً لسؤال ماريتا وتابع:
«وهي مدرسة في مدرسة ثانوية في سافولك.»
في غرفة الاستقبال احضرت السيدة فيسك اليهم شراب الشوكولاته الساخن، وكان رايان يجلس على مقعد وثير وقد مدّ ساقيه بتراخ بينما تقاسم والده الأريكة مع ماريتا. لم يبدل البروفيسور تيودور ملابسه التي كان يرتديها قبل مغادرتهم الجامعة. وقد هرع عند وصولهم الى مخبأ في الحديقة، والى المنظار الخاص به، والى مراقبته للطيور.
من الغريب ان الأب والابن يختلفان الاختلاف الكبير. فأحدهما يحب الوحدة ويلجأ الى الاماكن الخفية كي يراقب الطيور. اما الآخر فهو يطلب هذه الحرية

لنفسه، الحرية التي يفضلها على كل شيء آخر وهو كذلك لا يتحمل القيود التي تمليها العواطف المتضاربة وعواطف النساء المختلفة وخصوصاً حب المرأة.

لما جلست ماريتا بجانب هارفورد تيودور، وكانت أول مرة تجلس فيها قريبة منه منذ عملها معه، لاحظت بعض أشياء لم تلاحظها من قبل، فقد لفت نظرها ان اطار كمي قميصه قد بلي قليلاً وأصبحتا في حاجة الى الغسيل. وكان حذاؤه ينقصه اللمعان. أما ملابسه فكان يرجع طرازها الى سنين مضت.

وفي الجانب الآخر كان ابنه يرتدي آخر صيحة من الملابس.

ثم قدم البروفيسور تيودور الى ماريتا مزيداً من الشوكولاته الساخنة وسألها اذا كانت تشعر بالراحة، واذا كانت تحتاج الى شيء واعتذر لأنه، اهملها فلم يتمكن من مقاومة عدم ذهابه الى مخبئه الكائن في غابات ممتلكاته؟

وقال لها ان وجودها معه، جعله يشعر بأنه اصغر من سنه بكثير، وانه يتمنى الا تسرع بالعودة الى بيتها. وكان يتكلم بإخلاص جعلها تشعر بالقلق. وألت على نفسها الا تخذله وان تهتم اهتماماً عميقاً بأمر حياة الطيور الذي يوليه أهمية خاصة.

ثم قال:«اظن ان هناك فارقاً كبيراً في السن بيننا وتفصلنا هوة سحيقة من السنين، وأعتذر انني تجرأت ودعوتك بصديقتي.»

ثم راح يخاطبها كالاطفال وقال:«وهل تعارضين هذه التسمية؟ وهل ادعوك صديقتي؟»

حرك هذا التواضع في نفسها شعوراً قوياً جعلها تود ان تجهش بالبكاء فهزت رأسها موافقة مما جعله يبتسم بارتياح. وبحركة لا شعورية نظرت ماريتا الى ابن البرفيسور الجالس مادا ساقيه في مقعده الوثير، مغمض العينين ملقياً برأسه الى الوراء، ويبدو انه كان يستمع الى حديثهما، اذ دلت على ذلك عضلات وجهه المتوترة وجمود شفتيه ثم قالت:

«لماذا تسبب السنوات، بين اي شخصين، حاجزاً يمنع صداقتهما؟»

وبدت في عيني البروفيسور نظرة اكثر من نظرة ارتياح، بل نظرة امتنان... ثم اردفت تقول:

«ولماذا يحد السن الناس من لقاء بعضهم البعض في عالم الفكر والعقل؟ وخصوصاً اذا كانوا يتقاسمون الاهتمام بشيء ما.»

وفجأة رأت الابن ينتفض وينظر اليها باهتمام وتفكير، ولاحظت ان عينيه الثاقبتين تبحثان فيها عن شيء ما. ثم حوّل نظره الى والده ولكن الأخير كان مشغولاً بالنظر الى ماريتا، وكانت يده تتحرك بتردد كي يضعها على يدها وهو يقول لها:

«انا سعيد لوجودك معنا يا عزيزتي.»

* * *

«وسمعت ثانية تلك الكلمات التي فاهت بها والدتها والتي ما زالت تطن في اذنيها عندما قالت:« لا بدّ

انه مهتم بك لشخصك.» فهل كانت والدتها على حق؟ وشاركت ماريتا البروفيسور طعام الافطار، وكان يبدو ان رايان فرغ من تناول طعامه وذهب.

ثم سمعت البروفيسور يقول:

«سأصحبك هذا الصباح الى المخبأ، وهناك جدول يجري في أراضينا وهو واحد من روافد أحد انهار فولك، وعندما أذهب الى المخبأ أشعر بأنني محظوظ سمعت البروفيسور يقول: «سأصحبك هذا الصباح الى المخبأ، وهناك جدول يجري في أراضينا وهو واحد من روافد احد انهار نور فولك، وعندما أذهب الى المخبأ اشعر بأنني محظوظ لرؤية الطيور التي تزور الأنهار والمستنقعات.»

ثم استمر في تناول الطعام وقال:

«ربما تعرفين ان شرق انغليا، وخصوصاً هذا الجزء منها، تعد افضل مكان في البلاد لمراقبة الطيور.»

ان ماريتا تجهل هذه الامور ولكنها هزت رأسها موافقة وقالت له انها تفهم الآن لماذا يعشق مضيفها منزله هذا.

اكد كلامها وقال:

«هناك سبب آخر وهو ان المنزل تكتنفه الذكريات الكثيرة.»

وبدا في صوته الحنين الى الماضي، وراح يفكر في تلك الذكريات الغالية ثم قال:

«امارس هواية مراقبة الطيور وحدي، فأشعر بالوحدة وابني لا يشاركني هذه الهواية، وزملائي بالجامعة

يجهلون كل شيء عنها. «ولذلك أقدر اهتمامك يا ماريتا. ويمكنني ان اتولى تدريب عقلك الشاب وتعليمه وأسقيه حب مراقبة الطيور لو تعلمي بفرط سروري لبقائك معي في هذه الاجازة.»

شعرت ماريتا بمسؤولية العمل الذي آلت على نفسها ان تقوم به، ولم تقو ان تخبر البروفيسور انها ليست لها ذاكرة قوية تسجّل الاشياء فور رؤيتها فكانت لا تذكر الافراد اذا التقت بهم للمرة الثانية، فما بالك بالمخلوقات البرية الموجودة في عالم الطيور؟

ولما وصلت الى المخبأ وجدته مختفيا بين الاغصان وتحت اوراق الأشجار ويمر من جانبه جدول ماء.

وكان المخبأ يكاد لا يتسع لشخصين، مبنياً من مواسير الألمينيوم والقماش السميك الذي صنع منه غطاء الباب يرفع كلما دخل شخص او خرج منه وفي الباب رأت ماريتا ثقباً.

قال لها هارفورد: «انني اضطر الى البقاء احياناً لعدة ساعات.»

«وماذا تفعل لتناول الوجبات؟»

هز كتفيه وقال:

«عندما اتذكر احضر معي بعض الشطائر وزجاجة من الماء. ونادراً ما اسمح لأحد ان يأتي الى هنا لدى قيامي بالمراقبة.»ثم ابتسم وقال وقد برقت عيناه:«ان لي الآن رفيقاً يؤنسني في وحدتي، ولن نتكلم الا همساً.»

تملكها الخوف، فهل ظن البروفسور انها ستبقى معه

اثناء هذه الساعات الطويلة وبدون كلام؟ ومما زاد من خوفها انها وجدت انه زوّد المخبأ بمقعد لها فرأت مقعدين صغيرين يمكن طيهما، ورأت وسادة على احدهما، فقدرت ان يكون هذا المعقد لها.

ولكن يظهر ان بقاءهما في المخبأ هذه المرة لن يطول. فقد قال لها:«ان لدي اثنين او ثلاثة من الطيور تحت المراقبة. وهناك واحد أهتم به اهتماماً خاصاً. فصغاره التي تخرج من البيض تبقى مدة طويلة في العش على غير عادة. ثم اني اراقب العصفور المسمى متسلق الأشجار الذي جاء متوغلاً في الارض بشكل عجيب فهل سمعت عن ذلك الطير.»

هزت ماريتا رأسها بالنفي فأكمل يقول:

«من الصعب رؤيته، فهو يأتي متخفياً بلونه البني الذي يشبه قشر الجذوع التي يتسلقها. اما صدره فلونه أبيض، وهو الطير الوحيد الذي يعيش في اليابسة ويتقوس منقاره.»

وانقضى الصباح وأخذ البروفيسور خلاله يكتب ملاحظات مفصلة ثم رفع المنظار وأعطاه لماريتا لمراقبة تحركات الطيور وقال لها:

«لن أرهقك بذكر اسماء الطيور اليوم، فلدينا الوقت الكافي للتفسير في يوم آخر.» ثم وضع يده على كتفها وقال:«في كل حال فأنت موجودة هنا معي. طالما تمكنت والدتك من الاستغناء عنك.»

لم يظهر رايان على مائدة الغداء، اذ كان مشغولاً ، حسب قول والده في كتابة التقرير الخاص

برحلته الأخيرة الى الخارج. ثم قالت ماريتا: «ان له صديقة جيولوجية مثله كما اخبرني.»

«تقصدين دورين فورستر؟ نعم انها تحبه وتود ان تتزوجه، لكنه ما فائدة زواجه وهو يهتم بنفسه فقط.»

قالت وهي تعجب كيف وصلت الي هذا الموضوع الذي لا يخصها:«اذا احبته امرأة حباً كبيراً هل يكفي ذلك كي تغيره وتجعله أقل أنانية؟»

ضحك والده وقال:«لك فكرة غريبة عن تأثير النساء على الرجال يا عزيزتي، وهذا ما يدل على سذاجتك. لا انه ليس في حاجة الى حب امرأة، فقد تربى بدون ام.» ثم كف عن الكلام وتنهد ورجع يقول:

«امضى كل سنوات حياته الاثنين والثلاثين من دون ان يعرف رقة المرأة ورعايتها. واني لا أرى مانعاً في ان يكمل حياته على هذا المنوال، فهو لن يتغير ابدا. اعرف ولدي جيداً.»

وبعد برهة قال هارفورد:«سوف أخرج الآن لأنني مدعو الى اجتماع يضم زملاء لي من هواة مراقبة الطيور، وسوف اصحبك ذات يوم الى مثل هذه الاجتماعات.»

«ذات يوم.»

كان الجو قد تغير فظهرت السحب ولكن الشمس ظلت تسطع من حين لآخر، فأخذت ماريتا تتجول في الحديقة، ومرت على مخبأ البروفيسور، فنظرت اليه باحترام وكأنه بداخله.

شعرت بهدوء وسلام الى جانب الغدير. كانت الطيور تحط على الصخور وسط الماء او تزقزق على أغصان الأشجار. فهل يأتي الوقت وتصبح هي خبيرة البروفيسور في معرفة أنواع هذه المخلوقات الجذابة؟

ولما رجعت من جولتها رأت السيدة فيسك آتية من المنزل في يدها صينية. وهي تقول:

«اتيت بالشاي لك يا آنسة نيويل. اما الدكتور تيودور فقد ذهب ليأتي بالمقاعد وبالمنضدة قال انه رآك من نافذته وانت تتجولين، فاقترح ان آتي بالشاي اليك.»

اذن فطوال الوقت حين كانت تظن انها تحررت من وجوده، كانت في الواقع تحت مراقبته.

«هذا شعور لطيف منه.»

ولكن السيدة فيسك أكدت لها:«من النادر ان اتمكن من اقناع الدكتور تيودور ان يغادر مكتبه، وهكذا والده.»

ثم ظهر الابن حاملاً منضدة ومقاعد من النوع الذي يطوى وقال وهو يفرد المقاعد لهما:«اذا كنت تتساءلين لماذا افرض نفسي عليك أقول انني لم اشأ ان أترك صديقة والدي تتناول الشاي وحدها.»

«لا داعي ان تكلف نفسك القيام بالترحيب بي وتحيتي.»

فابتسم وقال:«عندما رجعت الى هنا لأستريح، واكتب التقرير عن عملي لم اكن اتوقع ان يأتي والدي

وبصحبته فتاة جميلة مثلك. وكان قد انذرني انه سوف يأتي بصديقة له، وبما اني اعرف ذلك الطراز من الناس الذي يصادفه لم اتمكن من إخفاء دهشتي عندما ظهرت على عتبة باب غرفة الطعام.»

تذكرت ماريتا تعبير وجهه عندما وقع نظره عليها لأول مرة حيث ظهر في عينيه الخوف بجانب الدهشة.

طلب منها ان تسكب لهما الشاي ووجدت مع الشاي فطائر الفاكهة ومربى المشمش المصنوع في المنزل بجانب بسكويت الشوكولا. قالت ماريتا كي تنهي الصمت الذي ساد جلستهما وكي تغذي فضولها:

«اظن انك رجعت لتوك من رحلة في الخارج؟»

فهز لها رأسه وقال:

«انها رحلة من رحلاتي الكثيرة في انحاء العالم.»

«قال لي والدك انك تستمتع بها، فهل هي جزء من تلك الحرية التي تحبها؟»

ثم لاحظ مغالاتها في الابتسام فرد عليها ببرود قائلاً:«هل تسخرين مني؟»

«لم تجبه وظلت ساكتة. ثم اكمل كلامه يقول:

«قولي لي ما هي الحرية التي يتمتع بها رجل ربط نفسه بزوجة واولاد؟»

«لم اقابل، من قبل، رجلاً انانياً وقاسياً مثلك وعلى كل حال ان ما يطلبه معظم الرجال من الحياة زوجة وأسرة.»

«ربما اختلفت عن معظم الناس، وربما اردت ان اتمتع بحريتي وذهبت في أي وقت والى اي مكان شئت، ان

www.elromancia.com

فكرة التخلي عن حريتي لأتخذ لنفسي زوجة محبة تطوقني بذراعيها وتقيدني بطرق تعسفية هي فكرة مكروهة لدي.»

هل كان يعني ما يقول؟ هل كان صادقاً في كلامه ام أراد ان يثيرها؟

اخرج حصاة من جيبه وراح يفحصها باهتمام وتمعّن، فتمكنت ماريتا من قراءة تعبيرات وجهه، وكأنها تنظر في صفحة كتبت بلغة غريبة.

نظر اليها وأعاد نظره الى الحصاة في يده وسمعها تقول:«اظن من رأيك ان المرأة لا تفقد شيئاً بالزواج بل تكسب كل شيء منه.»

«نعم هذا هو رأيي. وعلى سبيل المثال لن تخسري حريتك بالزواج بل تحصلين عليها. فلن تضطري الى العمل ثانية. ويمكنك ان تبقي مؤهلاتك محدودة كما هي الآن، وتدعي عقلك يعلوه الصدأ فتهبطين بقواك العقلية، كمعظم النساء.»

فقاطعته بقولها:«ذلك اذا تزوجت. ولكني ذكرت لك من قبل انني لم أجد بعد الرجل الذي يجعلني راغبة في الزواج... واذا كان الرجل الذي قدّر ان اتزوجه فقيراً فسأخرج الى العمل، أما اذا كان غنياً فسألتحق بفصول التعليم وأدخل الامتحانات لأحصل على المؤهلات التي تخليت عنها عندما مات والدي.»

«اذكري لي سبب مجيئك الى هنا؟»

نظرت اليه بدهشة وقالت:«لأن والدك دعاني. لماذا تقطب حاجبيك؟ الا تصدقني؟»

«أصدق ما تقولين ولكن لماذا دعاك أبي؟»

فكرت لبرهة وقالت:«بصراحة لا اعرف. كان يأتي الى المعمل مرات كثيرة عندما اكون هناك ويكلمني ويقدرني مع اني مجرد مساعدة.» ثم ترددت وقالت:«في يوم كنت أراقب أحد الطيور من نافذة المعمل وتساءلت عن اسمه، وكان والدك هناك فأجابني. وبعد ذلك لاحظت اهتمامه الكبير بي. فربما وجد في امكانيات تؤهلني ان اكون زميلة في مراقبة الطيور.»

رفع حاجبيه وقال:«لا بد ان هناك سبباً.»

ارادت ان تفعل شيئاً حتى تهدىء من أعصابها المتوترة. فجمعت أدوات الشاي ووضعتها على الصينية، وودت ان يغادر رايان الحديقة ويذهب فهذا الرجل يضايقها ويجعلها قلقة.

كسرت حدة السكون الذي ساد جلستهما فسألته قائلة:

«اين تذهب في رحلاتك الى الخارج؟»

«الى كل انحاء العالم. اذهب الى الاحراش والى الصحاري، وأخوض المستنقعات واتسلق الصخور. افحص عواصف التراب والرمال، وازور حفارات آبار البترول اثناء العواصف وفوق مياه البحر الهادرة.»

فكرت ماريتا في المخاطر التي تعرّض لها وتغلب عليها. وتعجبت لتعدد جوانب شخصيته هل يمكن لأي امرأة ان تجعله يحتاج اليها ولا يمكنه الاستغناء عنها؟

www.elromancia.com

الجواب على هذا السؤال: لا. وكان هذا الخاطر يقلقها كثيراً. ثم قام واعتذر لها لتركها وحدها وشكرها على وجودها معه. وبينما كان يدخل الى المنزل، توارت الشمس خلف سحابة فبدا العالم في نظرها تلك اللحظة مظلماً.

الفصل الثالث

رجع البروفيسور تيودور الى المنزل وقت العشاء. وكانت ماريتا قد بدّلت ملابسها ووقفت عند نافذة غرفة الاستقبال حائرة لا تدري ماذا تفعل. ثم فتح الباب فشعرت ان قلبها يخفق فجأة ظناً منها انه رايان،ولكنها رأت والده.

كان يمسك رزمة في يده. فقصد النافذة حيث تقف ماريتا وبدون ان ينطق بكلمة، قدم اليها تلك الرزمة قائلاً بابتسامة:«افتحيها.»

شهقت بشدة وقالت له:«منظار مكبر؟ ولكن لماذا؟»

«ان كل مراقب للطيور لا يمكنه ممارسة هوايته بمهارة بدون منظار يا ماريتا.»

«ولكني لست... ولكن ماذا تقول له؟ هل تقول: انا لست هاوية مراقبة طيور حتى استحق هذا المنظار؟ واكتفت بقولها:«انه رائع منك. ولكني في الحقيقة...»

فقال لها بحزم:«لا بد ان تقبليه اذا كنا سنراقب الطيور معاً. يمكننا ان نتقاسم المخبأ ولكن لا يمكننا الاشتراك في منظار واحد، يجب ان تقرأي التعليمات اولاً ثم ارشدك الى طريقة استعمال المنظار. قد تبدو معقدة في البداية ولكن عندما تجيدين تركيزه

www.elromancia.com

بسرعة على الهدف، لن تجدي صعوبة بعد ذلك.»
ثم نظر الى الساعة الموضوعة فوق رف المدفأة وقال:«يجب ان اغتسل وأبدل ملابسي للعشاء.
ثم نظر الى هديته وهو سعيد كالصبي الصغير وقال:«هل انت سعيدة بها؟»
«انها رائعة يا بروفسور تيودور. وأنا فرحة بها لأنها جاءت كمفاجأة لي.»
فرح لفرحها الظاهر، ثم فتح الباب ودخل رايان، ولكن ماريتا تمالكت نفسها عندما سمعت البروفيسور يقول:«يجب ان تناديني بها رفورد يا ماريتا. فنحن صديقان. اليس كذلك؟»
«هز البروفيسور رأسه محيياً ولده، وتمتم بأنه سوف ينضم اليهما بعد قليل، ثم اغلق الباب وراءه، فساد صمت طويل. وراحت ماريتا تتفحص المنظار وتلمسه برقة . ولا تدري ماذا تفعل به، اخيراً رفعت رأسها فرأت رايان وقد ارتدى ملابس عادية هذا المساء، بعيدة عن الرسميات.
وارتجفت ماريتا من دقات قلبها عند رؤيته، وشعرت بأن كل عصب في جسمها يرتجف ويهتز عندما تقابلت عيناه الرماديتان بعينيها. ثم قال لها:
«اذن انتما تستخدمان الأسماء المجردة الآن.»
«نعم نستخدم الاسماء مجردة. ولا بد انك سمعت حديث والدك معي وأنا متأكدة انه لا يفوتك شيء.»
عبر الغرفة واقترب منها فشعرت بأن تنفسها اصبح سريعاً قال لها:

«يبدو كذلك انها لا تفوتك بعض الحيل.»
«انا لا افهم ما تعنيه بذلك.»
فقال وهو يشير الى المنظار:«انه يخصك ولا يخص أبي.»
«وهل ظننت انني طلبت من والدك شراءه؟»
فقال هازئاً:«لا شيء في الدنيا اصبح مستقيماً وعادلاً. فللمرأة طرق كي تحصل على ما تريد من الرجل بدون ان تطلب.»
«ولكنك مخطىء في ذلك.»
وكان هذا الرجل ينقصه الذوق ولا عجب ان يختلف مع والده، فمن يمكنه ان يعيش في وفاق مع رجل مثله؟
قالت له والغضب يتملكها:«انك تتهمني بكلامك يا دكتور تيودور. وانا احتج على ذلك. انك تبني اتهاماتك على اوهام، فليس هناك من الحقائق ما يمكنه ان يكون قاعدة لهذا الاستنتاج.»
«انك تتكلمين كالعلماء فتذكرين الحقائق، من علمك ذلك؟ هل هو والدي؟»
«علاقتي بوالدك ليست حميمة كما تظن. وتذكر انني اعمل بين العلماء.»
«نعم ولك منهم حبيب.»
فصححت ما يقول:«بل صديق.»
رفع احد حاجبيه ورجعت تقول مؤكدة:
«نعم صديق. أليس من الضروري يا دكتور تيودور ان يستقي العلماء الحقائق من مصادرها الصحيحة.»

فرد بسرعة قائلاً: «لا يحدث ذلك دائماً. قد يضطر العالم احياناً ان يفترض نظريات قبل ان يضعها للتجارب ليكتشف حقيقة علمية يا ماريتا.»

واستعذبت اسمها على شفتيه! وتحرك شيء في صدرها فجأة كالطير المذعور وهو يطير هاربا. وسمعت اسمها لأول مرة وقد بدا غريباً وله معنى جميل.

ثم سألها سؤالاً عابراً:«وهل تقبلين هدية والدي؟»

«ولم لا؟ اعطاها لي كجهاز وليست هدية.»

«جهاز؟ ها قد عدنا الى المعمل ثانية. وهو جهاز ثمين يا ماريتا.»

وخفق قلبها. فهل ستقوى على ان تناديه باسمه مجردا؟

«هل في مقدورك ان تقدري ثمنه؟»

ردت تقول:«سوف أتركه عندما امضي من هنا.»

«وتجرحين مشاعر والدي؟»

«أعطاه لي لمراقبة الطيور وقال اننا لن نتمكن من استخدام منظار واحد. وعندما أذهب لن احتاج اليه.»

«بل سوف تحتاجين اليه، وتعرفين ذلك جيداً، وبما انه انفق المال والوقت في تدريبك كي تشاركين حماسته في دراسة عادات الطيور وأماكن معيشتها، فاذا رجعت الى منزلك ينتظر منك ان تستمري في اهتمامك بها، فمما لا شك فيه انك ستعودين الى هنا في فترات منتظمة لتشاركيه هوايته.»

ثم اضاف وقد استهوته فكرة ما: «هذا اذا لم تشاركيه شيئاً آخر.»

لم تعر ماريتا هذا التعليق اهتماماً. آلمها ان مجرد ملحوظة عن العصفور الأسود الذي رأته خارج نافذة مختبر الجامعة منذ أسابيع قليلة جعلتها مقيدة تجاه رجل كالبروفيسور تيودور.

* * *

اصطحب هارفورد ماريتا الى المختبر في اليوم التالي، علّمها كيف تستخدم المنظار وأراها التليسكوب وحامله ذا الثلاثة قوائم، اشتراه ليراقب الطيور به.

قال لها:«التليسكوب لن ينفعك كمبتدئة فهو يتطلب ان تركزي بسرعة على الطيور القريبة نسبياً.»

ثم لمسه بإعزاز وتقدير وقال:«كلفني الكثير من المال.»

المال... انه الشيء النافع الذي لا يفتقر اليه كل من الأب والأبن. ثم قال هارفورد:«الصمت والهدوء أحسن الوسائل في مراقبة الطيور، يضاف اليهما الصبر.»ثم قال لها بعد برهة:«انصتي الى هذا الطير الذي يرفرف... وهذه هي صيحة استغاثة لخطر ما. أما في الربيع خلال موسم التزاوج فيصدر منه صوت غنائي، وفي غير ذلك الموسم يكون صوته كصوت الناي. وفي الوقت نفسه انه قلق يتضايق لأتفه الأشياء.»

وجه منظاره من خلال الثقب في باب المختبر

وقال:«ها هو! لونه رمادي يميل الى اللون البني وصدره أفتح لوناً ومنقط بنقط بنية تميل الى الرمادي، فهل تظنين انك سوف تتعرفين عليه بنفسك في المرة المقبلة؟»

حاولت ماريتا ان تميز الطير من بين غيره من الطيور التي كانت تطير، لكنها فشلت ثم قالت:«انني، حسناً، انني...»

اما البروفيسور فلم يخدع، فقد كان متمرناً في فن مراقبة الطيور حتى انه لم يصدق انها نجحت في التعرف على هذا الطير الذي يسألها عنه.

ثم سمعته يقول:«والآن هل يمكنك رؤيته؟»

وفي تلك اللحظة امكنها رؤيته فصاحت تقول باهتمام:«نعم، نعم، اني أراه الآن.»

وضع ذراعه حول كتفيها عندما نظرت اليه ورأى في عينيها شبح الانتصار لأنها تعرفت على الطير لأول مرة في حياتها.

ثم نظر هارفورد اليها وكانت حماسته تعادل حماستها، وعيناه تبرقان كعينيها. وفمه، تعلوه ابتسامة سعيدة. كان تعبير وجهه لا يعكس العواطف الأبوية ابداً. فأشاحت بوجهها وعلى محياها نظرة عابسة.

مرّ الصباح اقتصر على نجاحها في التعرف على هذا الطير فقط، ثم قالت له وصوتها يفتقر الى الثقة: «اذا كان في امكاني ان اقرأ كتباً.»

«كتب؟» وبدأ سعيداً باهتمامها. ثم اردف يقول:«لدي

الكثير من الكتب عن الطيور، سأختار لك اسهلها كبداية ثم نتدرج الى الأكثر تعقيداً.» «انا سعيد جداً لاهتمامك بمشاركتي حماستي.»

بعد ظهر ذلك اليوم وجدها رايان تجلس في غرفة الاستقبال غارقة بين الكتب التي تعالج موضوع مراقبة الطيور.

كان البروفيسور قد رجع ثانية الى مخبأه ولم يشأ ان يرهقها، كما قال، بأن يصطحبها، معه ثانية الى المخبأ.

كان رايان قد نزل لتناول الشاي وضحك عندما رأى الكتب متناثرة حولها، وكانت ضحكته كلها سخرية. وقال لها:«أي منا تحاولين التأثير عليه؟ هل هو والدي بإظهار حماستك وتكريسك له ام انا بمحاولتك العزم على إظهار استعدادك للتعلم، وبذا تكونين اهلاً لأن تكوني صديقة لأحد أفراد الأسرة؟»

«انا لا أحاول التأثير على احد وخصوصاً أنت. والا كنت أقرأ كتباً في الجيولوجيا. اليس كذلك؟»

فاعتدل في جلسته وقال:«انك تغرينني بأن احضر لك عدداً من الكتب عن رفوف مكتبي وأفرضها عليك. وبعد فترة من الزمن امتحنك فيما اكتسبت من معرفة جديدة.»

جيولوجياً، غضت من نظرها فلم تشأ ان يرى مدى اهتمامها بهذا الموضوع.

ثم سمعته يقول:«فإذا فعلت، هل يروق لك هذا؟»

ردت عليه بعدم اكتراث.

«تعطيني كتباً في الجيولوجيا لأقرأها؟ انني اقرأ هذه الكتب وأدرس حياة الطيور لأرضي والدك.»

«وهل معنى ذلك انك لا تودين إرضائي؟»

«وهل هناك سبب لذلك؟»

ووقع نظرها على صورة نسر. ولكن حواسها كانت تلتقط الحركات السريعة للرجل الذي كانت تكلمه.

ثم قرأت ماريتا عن النسر: لا شيء يمكن مقارنته في دنيا الطيور بالنسر الذهبي من حيث العظمة والرقي، فهذا الطير القناص العظيم بجناحيه الكبيرين المنبسطين ينقض من السماء على فريسته بسرعة فائقة لا تصدق، وكأنها وقعت في كمين، ثم يأخذها ويأكلها.

اثناء العشاء اعلن هارفورد نيته دعوة اصدقائه من محبي مراقبة الطيور الى منزله، على ان تبدأ هذه الدعوة باجتماع يليه تناول القهوة والتداول.

وقال في ذلك:«سيكون عددنا حوالى خمسة عشر هاوياً.»

ثم نظر الى ماريتا وعاد يقول:

«يسعدني يا عزيزتي ان تتنازلي وتلعبي دور المضيفة.»

بالرغم من ان العشاء كان في أوله شعرت ماريتا انها فقدت شهيتها.

فوضعت على المائدة الشوكة والسكين ثم تناولت كوب الماء. ولكن الماء المثلج لم يغير ولم يهدىء من اضطرابها.

فاذا لعبت دور المضيفة معناه انها تتساوى مع هذا الرجل. ومهما امضت في منزله من وقت واندمجت في حياته العائلية فهو ما زال بالنسبة اليها في منزلة المثل العليا التي لا يمكن الوصول اليها. ثم ترحب بضيوفه وكأنها تنتمي الى هذا البيت. هي مارينا نيويل مساعدة المعمل الصغيرة كما يسميها ابنه الساخر؟

«ولكن يا بروفيسور، يا هارفورد، انني لا أصلح لاستقبال ضيوفك.»

قال رايان:«هل تشكين في حكم والدي يا ماريتا؟ وهل تقولين بطريقة ملتوية انك لا تثقين في مقدرته على تقدير قيمة الشخص. فوالدي عميد كلية في الجامعة ويفوق جميع العقول ، وماهر لدرجة انه يشعر بالذكاء الكامن في أعماق مجرد مخلوق تافه مثل مساعدة المعمل الشابة، ويرى فيها امكانيات للتعلم لم تكتشف بعد.»

ونظر بطرف عينيه الى والده وكأنه يحاو ل ان يرى تأثير تحديه له.نظرت ماريتا الى الأب ثم الى الأبن. وكأن الرجلين انهمكا في عداء عائلي مرير لا هوادة فيه.

«يؤلمني ان تقللي من مقدرتك فانني سأتشرف اذا وقفت بجانبي ومعي كي تستقبلي ضيوفي.»

يتشرف! ان طيبة البروفيسور وكرمه وروحه السمحة تدهشها ثم قالت له:«العكس هو الصحيح.»

ولكن يده المرفوعة اسكتتها، وسمعت ابنه يقول

ساخراً: «انك تقللين من قيمتك.»
وهذا يعني، كما ظنت ماريتا، وهي ترى النظرة القاسية في عينيه، انها قطعاً تظن نفسها في مستوى منخفض اذ هي تعد نفسها في مستوى اقل من مستوى والده.
«اذا كان رأيك فيَ سيئاً لهذه الدرجة، واذا كنت تعتبرني تحت مستوى تقديرك تذكر انك ابني وأنك لا بد وارث بعض صفاتي السيئة.»
بالرغم من انه كان هادئاً، تعجبت ماريتا وهي تنظر الى الأب ثم الى الابن.
لماذا يكره كل منهما الآخر في هذا الجو؟ ولماذا يستخدمانها كسلاح؟
ثم قالت له بحزم وبلهجة التحدي:«كم هو رائع ان ألعب دور المضيفة لك ويشرفني ان تطلب مني ذلك.»
ظهر الحقد والغضب الجامح في عيني الابن فقد انتقلت ماريتا الى صفوف الاعداء.
بعد العشاء خرج رايان فسمعت ماريتا وهي جالسة في غرفة الاستقبال مع هارفورد صوت السيارة وهو يهدر، فشعرت بموجة مفاجئة من التعب جعلت عقلها يخبو وحواسها لا تستجيب. ومن العجب ان يرد هارفورد على سؤالها الذي لم تشأ ان تسأله.
«لا بد انه ذاهب للقاء صديقته. فهما غالباً ما يلتقيان على موعد يحدد من قبل. كانت تسكن في هذه المنطقة الى ان وجدت وظيفة مدرسة في المدينة

المجاورة. وتعتبر آخر صديقة له من سلسلة صديقاته الكثيرات.
كان هارفورد يتكلم بغضب عن عدم وفاء ابنه لنسائه.
قالت ماريتا: «قال لي انه يذهب في سبيل عمله الى أماكن بعيدة.»
«انه قلق بطبيعته. ولذلك كان الفضل لعمله ان يمده بتغيير الجو المحيط به وهو الشيء الذي يحتاج الى التغيير الدائم في صحبته للنساء. انا اشك في رجوعه قبل الساعات الأولى من الصباح وربما في الصباح.»
لامت نفسها لأنها تركت ذكر رايان يقلقها لمجرد انه سيمضي الليل كله مع صديقته.
«سأذهب الى مخبأي يا ماريتا. فهل تأتين معي لمراقبة تصرفات الطيور عندما يقترب المساء؟»
أخذا يتشاركان في المراقبة معاً في الغابة بجانب الغدير.
كانت ماريتا تجد صعوبة في منع افكارها من التساؤل عن رايان وأين يكون الآن. كانت الصورة التي تخيلتها عنه وهو بين ذراعي صديقته تثير فيها الكره. فأخذت تتململ مما جعل هارفورد يقول لها انها حرة، فاذا أرادت ان تغادر المخبأ وتتجول في الأراضي المحيطة به يمكنها ذلك شرط الا تفزغ الطيور وتجعلها تطير هاربة.
كانت رائحة الليل وزهوره تعبق الجو خارج المخبأ.

www.elromancia.com

وبرودته تجعل ماريتا ترتجف وهي مرتدية ثوباً خفيفاً. ولذلك رجعت الى المنزل تواً. وأثناء صعودها السلم كانت دقات قلبها تطغي على وقع أقدامها وطرأت لها فكرة. ان رايان تيودور في الخارج. وغرفة مكتبه خالية فلماذا لا تصعد اليها لترى المنظر المحيط بالمنزل؟

دفعت الباب وهي تلفتت حولها بخوف وكأنها تنتظر ان تجد شبحاً في الغرفة على الرغم من ان الغرفة كانت خالية شعرت بوجود صاحبها فيها فالهواء كله ممتلىء بشخصيته المعتدة بنفسها، وبقسوته وجاذبيته ورجولته، وتنادي كذلك بثقافته، فالرفوف تمتلىء بالكتب العلمية وعلى مكتبه تناثرت الأوراق التي دوّن فيها ملحوظاته. أخذت ماريتا منظاره وعلقته في كتفها حتى تؤمن سلامته ثم قامت لترتكز على النافذة وتصوّب المنظار نحو الخط الذي يحدّد البحر لكنها وجدت ان البحر اختفى وراء الأفق.

ورأت تحتها عن قرب الغابة بجانب الغدير، وفي مكان ما بين الأشجار كان البروفيسور يراقب الطيور، ثم سمعت وقع اقدام قوية على السلم تدل على ان صاحبها رجل.

أنه يقصد من غير شك غرفة المكتب، فليس في الدور العلوي حجرات غيرها. تجمدت ماريتا وحبست انفاسها. هل هو هارفورد جاء يبحث عنها؟ استدارت عندما فتح الباب وسطع النور. اما المنظار الذي كانت تعلقه في كتفها فقد ارتفع في الهواء ثم

اصطدم بالميكروسكوب المصوّر على المنضدة وعند اصطدامه سقطت إحدى الشرائح الزجاجية الصغيرة التي تستعمل في التجارب على الارض وتفتت، فالتفتت وهي لا تقوى على التنفس لترى الكاميرا التي كانت مربوطة على رأس الجهاز تسقط على المنضدة.

المنظار في حركته القوية مزق الأربطة التي تربط الكاميرا بالميكروسكوب وجعلها تهوى...

ولم تقو على مواجهة نظرات صاحب الغرفة او غضبه. فرأت في عينيه غضباً ملتهباً. نظرت عيناه اليها اولاً ثم الى المنظار ثم الى التلف الذي سببته.

وبعد ذلك بردت نظراته وأطلق الشتائم التي جعلت ماريتا تخاف وترتعد، ثم عبر الغرفة الى المنضدة التي وضع فوقها الميكروسكوب المصوّر والتقط الكاميرا ولما أخذ يفحصها وينظر اليها لم تقو ماريتا على التحرك وجف ريقها وتشابكت يداها في يأس وضعف تنفسها.

«انها تلفت ولا بدّ من إصلاحها.»

ثم التفت اليها فتراجعت تحت تأثير نبرات صوته التي تشبه السوط واردف يقول:«ومن حسن حظك هناك متجر في البلدة يمكنه ان يمدنا بالجزء التالف ولكن سوف يكون ذلك سبباً في تأخير عملي بضعة أيام.»

فهمست تقول:«شريحة الزجاج كسرت.»

ثم انحنت تجمع القطع المتناثرة لكنه نهرها قائلاً:

«اتركيها، فلن ينالك الا جرح يدك وسوف يصب والدي غضبه عليّ، وأنا أكره ان يتهمني بأنني كنت السبب في جرح مساعدته الصغيرة.»

«انني، انني آسفة. فلم اتسبب في ذلك عن عمد. وعادة أكون حريصة جداً في تناول الأجهزة التي استعملها بكثرة في عملي. كانت حادثة مفاجئة غير متوقعة.»

رد بخشونة يقول:«كل الحوادث غير متوقعة. ولكن كان يجب ان تقدري فأنت على مستوى أعلى من الفتاة المتوسطة الذكاء. أليس كذلك؟»

كرهت سماع صوته الغاضب فارتفع صوتها مع الدم الذي صعد الى وجهها وقالت:

«لم ألمس الكاميرا ابداً بل كان المنظار.»

«الذنب هو التجسس على العمل الذي أقوم به، وجودك هنا بدون اذن وذلك واضح من الطريقة التي استدرت بها لدى دخولي.»

«أعترف بخطأي. وكان يجب عليّ ان استأذن اولاً في الدخول لكنك كنت في الخارج... لم أتجسس على عملك ابداً، فكيف تتهمني بهذا الامر الخطير؟»

«لأن هذا التجسس يحدث كل يوم. ويسمى التجسس الصناعي ومن يدري فقد يكون تحت تصرفك البريء الذي يبدو عليك، انتماؤك الى شبكة من التجسس الصناعي، أنا أعمل في شركة تحرص على المعلومات التي يجمعها موظفوها وتبقيها سراً خاصاً بها.»

«أنا آسفة لأنك لا تحسن ظنك بإخلاصي. وتعتقد

أنني دنيئة أقوم بافشاء أسرارك التي، حتى ان قدّر لي ان أراها، فلن أفهمها. وآسفة للتلف فسوف أدفع ثمنه. وعندما تعرف التكاليف أخبرني بها حتى أكتب لك شيكاً بالمبلغ.»

نظر اليها لفترة طويلة وقال:«آه لو تعرفين القيمة الغالية لهذا الجهاز! وهو يخص الشركة التي اعمل فيها.»

رفعت رأسها تحدياً وقالت:«مهما بلغ المبلغ لاصلاحها ما زلت أصر على تسديده... وأنا آسفة لدخولي هنا بدون دعوة. قال لي والدك انك ستغيب هذه الليلة لمدة طويلة وقال لي كذلك انك ستقابل صديقتك فربما لن ترجع قبل الصباح.»

«لم يعطك والدي معلومات صحيحة، ذهبت الى الحانة لأتناول شراب.»

لاحظت ماريتا انه يرتدي ملابس عادية وكان بنطلونه القديم ذو القماش السميك يضاعف من رجولته فيجعله يختلف عن ذلك الرجل الناعم المهندم الذي رأته لأول مرة وكان من الجلي ان له شخصيتين مختلفتين، الأولى تخص الرجل صاحب والثقافة العالية والتعليم الممتاز، والثانية تخص الجيولوجي الخبير في فرعه والذي يملي أوامره ويرأس العمل في الظروف القاسية والصعبة، ويعيش حياة قاسية ثم يقضي وقته في ملذاته كلما وجدها. نظر اليها وقال:«واذا كنت قد امضيت طول الليل في الخارج فهل كان يقلقك ذلك؟»

اندهشت لهذا السؤال وردت عليه تقول:«يقلقني؟ وما السبب؟»

«الا يزعجك هذا التصرف المعيب من ابن صديقك؟»

«يزعجني؟ لا ولا حتى يدهشني أن مثل هذا التصرف هو ما انتظره منك.»

«وما هو الأساس الذي بنيت عليه هذا الحكم.»

هزت كتفيها وقالت: «بنيته على ما قلته لي عن نفسك. وعلى ما أعرفه عنك.»

فقال ساخرا:«انك تعرفينني جيداً وكأنك تعرفينني منذ زمن طويل.»

ضايقها هذا التهكم ولكنها لم تأبه له. ثم قالت:

«زمن طويل يجعلني أبني حكماً عليك. وان احدس ببعض حكمك على النساء.»

خلع سترته والقاها جانباً. واتكأ على المكتب وقال:«خيّل اليك على سبيل المثال اني انظر اليهن كأهمية ثانوية في حياتي وكشيء مسلّ عندما أحتاج اليهن.»

وبدا في عينيه بريق يسخر منها ثم أكمل كلامه يقول:«واني استخدمهن وأحياناً لا أحسن استخدامهن وعندما يعترضن على معاملتي القاسية لهن، القيهن جانباً وأبحث عن غيرهن ليحللن مكان الأخرى التي ذهبت.»

سببت لها كلماته الاشمئزاز وفي الوقت نفسه أثارتها. أغمضت عينيها لبرهة حتى تتفادى النظر الى جاذبيته. ثم سمعته يضحك فغضبت ثم استدارت

لتطل من النافذة. قالت وصوتها يبدو غريباً.

«كان ما أريد عمله هو ان اطل من النافذة لأتمتع بالمنظر وهذا سبب قدومي الى هنا.»

أطفأ رايان النور وجاء ليقف بجانبها عند النافذة فتأكدت انه تعمد ان تلمس ذراعه ذراعها، وحتى لما ابتعدت عنه قليلاً حرص ان يقترب حتى يتلامسا اكثر فعضت على شفتها وشعرت انها تود البكاء وقالت في نفسها: كفَ عن ذلك، كفَ عن تعذيبي فاني لست من ذلك الصنف من النساء. الا تلاحظ ذلك...

سمعته يهمس ويقول:«انظري! المنظر اختفى فانسدل الستار عليه وأخفاه ولم يبق شيء كما ان الأفق قد راح.»وأكمل يقول بصوت منخفض:«شعوري بالحرية ذهب كذلك.»

وسكت ثم شعرت وهو يقترب منها اكثر ويقول:

«لا تهتمي بذلك. فعندما يأتي الصباح سوف تعود حريتي معه.»

ونظر اليها ورفعت عينيها اليه فهالها ان تجد وجهه قريباً منها. ثم أردف يقول:«كالذي يخضع لمفاتن المرأة اثناء الليل ثم يتركها ويمضي في الصباح.»

الفصل الرابع

نزلت ماريتا للافطار في اليوم التالي فوجدت مكان هارفورد خالياً وأدواته مستعملة، فأسرعت في تناول طعام الافطار حتى تتلافى رؤية رايان، ولكنه دخل قبل ان تنتهي من الطعام، نظر اليها وابتسم بسخرية عند رؤية بنطلونها الضيق المصنوع من القماش السميك، والبلوزة ذات العنق المفتوح. ثم جلس على مقعده ولم يلتفت اليها.

كان يرتدي ملابس عادية هذه المرة ايضاً ودخلت السيدة فيسك بخطوات سريعة قوية. وأمسكت بقطعة من القماش لتحمي يدها من الحرارة وأمسكت بصحن فيه لحم وبيض وضعته أمام رايان، فابتسم لها ابتسامة عذبة.

ولما غادرت السيدة فيسك الحجرة حوّل ابتسامته الى ماريتا، لكن العذوبة تحولت الى سخرية، ثم تناول الجريدة عن مقعد والده وطواها وراح يقرأ جزءاً من الصفحة الاولى. ثم غاب في القراءة عن العالم. نهضت من مكانها وخرجت وراءها وبق ورأسها مرفوع اغلقت الباب وراءها وبقيت في البهو. نظرت الى سقفه العالي وجدرانه المنقوشة، وعلق فوق باب

مدخل المنزل شعار العائلة، وكانت كلماته باللغة اللاتينية فتساءلت بفضول عن معناها. ثم خرج هارفورد من مكتبه ووقف بجانبها ووضع يده على كتفها، وفي تلك اللحظة فتح الباب وخرج رايان من غرفة الطعام ولكن يد هارفورد بقيت كما هي، فمشى رايان الى المنضدة الطويلة المصنوعة من خشب البلوط والتقط إحدى المجلات. التفتت ماريتا نحوه خلسة، ورأت على غلاف المجلة صور طير فارداً جناحيه، وكانت إحدى مجلات هارفورد التي تعالج مراقبة الطيور فتعجبت لقراءة رايان لها.

قال البروفيسور تيودور:«سأذهب هذا المساء الى مخزن كبير يقع تجاه الحديقة الكبيرة على الجهة الأخرى من أرضنا وتسكنه بومة من النوع الذي يسكن المخازن الكبيرة، وأتمنى من زمن طويل ان أصورها. فهل لك ان تأتي معي، إذ ربما وجدناها فتشاهدينها؟»

سألته ماريتا:«صورة في الظلام؟»

وهنا سمعت رايان يرد بدلاً من والده ويقول:

«صورة الكترونية بالكشاف القوي.»

قالت ماريتا وهي تتجاهل الابن:«نعم أود ان آتي معك.»

فضغط بيده التي كانت ما تزال على كتفها لسعادته وقال:«حسناً. سنذهب بعد العشاء معا.»

تعلقت نظراتها بنظرته فرأت فيها بريقاً غريباً. وكانت تشعر شعوراً خفياً بأنه ينظر اليها ولا يراها،

وخيّل اليها ان نظره يخترقها لكنها عندما ابتسمت له كانت ابتسامته دافئة وبها شيء من الحماسة ثم قال:«سيطيب لي وجود من يؤنسني، فقد مللت الوحدة.»

وشعرت ماريتا ان نظر رايان يقع عليها. ثم رجع هارفورد الى مكتبه ثانية، وأغلق الباب، قصدت ماريتا السلم مارة برايان في طريقها، لكنه القى بالمجلة جانباً ومدّ يده وأمسك بها، فأرادت ان تتخلص منه غير ان الاصابع التي كانت تمسك بها بخفة غاصت في ذراعها بقسوة، اذ كانت يد إنسان غاضب: «ماذا تريد؟»

«اتفقت مع والدي على موعد.»

التهبت وجنتاها وقالت:«لا تكن سخيفاً... لا شيء سوى اتفاق كي أذهب معه عندما يصوّر البومة.»

«أتذهبين الى المخزن في جنح الظلام؟»

«عقلك لا يرتقي أكثر من عقل خادم غرير... لا تظلم احداً وخصوصاً والدك ولا تقس تصرفه بتصرفاتك الدنيئة.»

«أشكرك على رأيك في مبادىء أخلاقي. وبالرغم من نقاء والدي فانه انسان، وهو رجل لم يتعدّ الخمسين من عمره الا قليلاً وبذلك لا يعتبر كبير السن، كما انه بصحة جيدة ويمكنه إقامة علاقات مع امرأة إذا اراد ذلك.»

«أرجوك دعني أذهب فانك تؤلمني.»

قال لها:«بما انك اتفقت مع والدي على موعد هذه

الليلة، فاني أقدم لك دعوة لبعد ظهر هذا اليوم.»

ردت تقول:«لا، شكراً، انني...»

«انا ذاهب الى نورويتش ومعي تلك الكاميرا التي تسببت في كسرها للعثور على قطع الغيار اللازمة فهل تأتين معي؟»

«الكاميرا التي تسببت في كسرها.» أراد ان يذكرها بمهارة في تلك اللحظة التي لم تنتبه فيها وأتلفت قطعة هامة من أحد الأجهزة عندما اقتحمت مكتبة بدون دعوة.

خفف من الضغط على يدها فأفلتت منه وصعدت السلم هاربة.

بعد ان مشطت شعرها ولونت وجهها بماكياج خفيف وغسلت يديها، سمعت التليفون يرن في مكان ما بالمنزل. وبما أن الوقت كان قرب الغداء، فكرت ماريتا ان تنزل الى الدور الأول. فتحت باب غرفتها وسارت الى رأس السلم... لا بدّ ان المكالمة الهاتفية كانت تخص رايان لأنه كان يتكلم ويضحك في البهو. بقيت ماريتا مترددة في النزول وسمعته يقول: لا يمكن ان اعدك يا دورين فسأكون مشغولاً. تقولين امرأة اخرى؟ يا حلوة، آن الآوان ان تعلمي شيئاً عن حقائق حياتي، فلدي امرأة تحت أمري في كل ركن من أركان العالم. اذا أردت ان التقي بامرأة فما عليّ سوى ان أرفع سماعة الهاتف... تقولين ان هذا ادعاء؟ لا بل هو الحقيقة المجردة.»

بدت من ماريتا حركة لا شعورية سمعها رايان

فرفع رأسه الى أعلى ورآها وقد بدت في عينيه نظرة متوترة. فاستدارت ورجعت الى غرفتها.

جلست على السرير وانتظرت ثم قامت تتجوّل في الغرفة ولكن لما سمعت ناقوس الطعام لم تتأخر عن النزول.

كان رايان ما زال ممسكاً بسماعة الهاتف: فنزلت درجات السلم ورأسها مرفوع وعيناها تتفاديان النظر اليه وهو مسترخ على المقعد ويبتسم لشيء قالته له المرأة على الجهة الأخرى من الخط.

وسمع البروفيسور لأول مرة، بنية رايان في الخروج مع ماريتا قبل انتهاء العشاء. فلم يسرّ لذلك وتعجبت ماريتا لتساؤلاته المنطوية على العراك الحقيقي والموجه الى ابنه: «لماذا تدعوها معك؟»

«ولم لا؟»

احتار البروفيسور وحاول ان يجد جواباً مقنعاً يرد به على ابنه فأخذت عيناه تدوران في الغرفة وكأنه ينتظر من الاثاث ان يمده بالرد وقال:«انا سأكون في المخبأ، وماريتا يسرها ويسعدها ان تقرأ الكتب التي اعرتها إياها عن مراقبة الطيور، فإذا كان اهتمامها في هذا المجال سيبقى عميقاً، كما أتمنى، أمامها الكثير من العمل الذي لا بدّ ان تنجزه.»

قال رايان بعدم اهتمام وهو يقوم من مقعده.

«هي وافقت على ذلك، تعالي يا ماريتا.»

نظرت ماريتا الى البروفيسور على الفور فرأته في سبيل ان يقول شيئاً، وغالباً ما كان ينوي الاعتراض،

سألته قائلة:«هل لديك مانع يا هارفورد اذا كنت..؟»

«فقام هارفورد وقال:«اذهبي معه يا ماريتا لتري نورويتش فلا يوجد في القرية سوى محلات معدودة لا تتناسب مع ذوق أحد.»

نظرت الى ملابسها ثم الى رايان وقالت:

«لا بدّ ان أذهب للاستعداد.»

أوقف رايان سيارته في المدينة، واكتشفا أنه يوم السوق، وسألها قائلاً:«ماذا تفضلين؟ هل تودين زيارة معالم البلد ام تتسوقين في المحلات؟ فهناك الكاتدرائية...»

وأخذ يعد على أصابعه...«ويرجع تاريخها الى ايام النورمانديين في القرن الخامس عشر، ولها برج يعد ثاني أبراج انكلترا علواً... ثم تجدين مدرسة القرية من القرن الرابع عشر حيث كان اللورد نيلسون طالبا. وبجانب السوق تقوم دار الحكومة ويرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر. ثم يجب ذكر قلعة نورويتش التي بناها النورمانديين والتي أصبح جزء منها متحفاً الآن . ثم دار الغرباء، وقد سميت بذلك تكريماً للوافدين الفلامينع الذين أتوا ليستوطنوا المنطقة في القرن السادس عشر.»

وأضاف:«أيهما تختارين، اذ سوف تكونين وحدك فالمحل الذي سآخذ الكاميرا اليه يقع في شارع جانبي... ولن اقدر الوقت الذي سوف أمضيه هناك.»

قالت:«اظن أنني سأستغني عن زيارة معالم المدينة هذه المرة. فلن تروق لي وأنا بمفردي.»

«إذن تفضلين الذهاب الى السوق؟»
هزت رأسها موافقة ثم قال لها وهو يقبض على ذراعها:«سأوصلك اليه وامكثي هناك الى ان ارجع اليك. سوف أتجول في السوق الى ان اجدك.»
وعندما وصلا الى السوق قالت له:
«في السوق الكثير من الناس، فكيف ستجدني؟»
«أعرف كيف اجد الفتاة التي تمتلك شعراً لونه بلون شعري، وباقي خصائصها لا تنسى بسهولة.»
وابتسم لها ثم ذهب واختفى بين الناس بعد ان قال لها:«تمتعي بوقتك.»
وقبل ان تتخذ ماريتا طريقها بين الناس الذين كانوا يساومون أمام البضائع، قصدت الشوارع الضيقة المرصوفة بقطع الحجارة الصغيرة، وتجولت فيها فمرت بالمنازل الفخمة ونظرت الى الممرات الضيقة التي تصب في الطريق الرئيسي ورأت الأثاث القديم ومعارض الفنون. ومرت بأماكن الحفريات التي ظنت انها تحتوي على آثار من تاريخ المدينة القديمة.
كان الناس يثرثرن والموسيقى تعزف، وكانت أقسام الفاكهة تعبق الجو برائحة الفاكهة الخاصة بها، بعضها ذكي وبعضها غريب. أما الزهور فملأت المكان بألوانها الزاهية التي تجذب النظر.
سمعت ماريتا صوتاً بجانبها يقول:«من الغريب ان نشترك، على الاقل، في شيء واحد. وهو لون شعر كل منا.»

فشعرت بالتوتر وحبست أنفاسها. فقد عاد رايان وكانت يداه خاليتين، وأمكنه ان يقرأ أفكارها فقال:
«التاجر الذي قصدته نفدت من محله تلك القطعة الهامة التي طلبتها.»
«اذن سوف تبقى الى ان تحضر الكاميرا. انني آسفة لأنني سببت لك كل هذه المتاعب.»
فقال بتهكم:«هذا التأخير يسبب لي الكثير من المتاعب.»
ومشى بجانبها يلفت نظرها الى ما تحويه أقسام السوق من بضائع، وقال لها انهما يشتركان في هواية واحدة وهي زحام السوق. واستطرد:
«يمكننا ان نبني علاقة على هذه الحقيقة!»
ردت ببرود على كلامه قائلة:«لا أرى أي داع لنحاول ان نبني أي نوع من العلاقات. فانني هنا ضيفة صديقة لوالدك. وعندما أرجع الى بيتي بعد انقضاء الزيارة لن أرى أي سبب كي نتقابل ثانية.»
وفجأة وبدون إنذار استدار لمواجهتها وسدّ الطريق أمامها وترك الناس يلفون حولهما، نظر اليها وقد ضاقت عيناه ثم قال:«انك لن تستطيعي ذلك.»
اجتاحها الغضب فجأة وقالت:«هل لك ان تتركني وحدي؟»
رجع رايان الى مكانه بجانبها واستمرا في السير.
«لا، انني لا اريد ان أتركك وحدك...»
«انك تسبب لي الاشمئزاز.»
«لكنها ندمت على حماقتها، فهو ابن مضيفها وليس

لها الحق في مخاطبته بهذه الطريقة، وهو يكاد يكون غريباً عنها، اذ لم تعرفه الا منذ وقت قصير. وكان تقطيبه وعبوسه قد أجبرها على الاعتذار له فتقبل الاعتذار بهز كتفيه بلا مبالاة..

ولكي تخفي عن نفسها اضطراب أفكارها أطالت ماريتا الوقوف بجانب أحد المحلات بالسوق، وراحت تلمس الملابس المعروضة وتفحص شالاً من الصوف ابيض مشغولاً باليد بغرزات معقدة جميلة الصنع، خفيفاً، رقيقاً كنسيج العنكبوت، وتخيلت نفسها تضعه على كتفيها عندما يبرد الجو في المساء.

وعندما سألت البائعة عن ثمنه وعرفت ارتفاع سعره اعادته الى مكانه وهي تتنهد بحسرة، استمرت ماريتا في تجوالها، وكانت تسبق رايان بمسافة طويلة ولكن هذا لم يضايقه وتساءلت لماذا هي دائمة الخلاف مع ذلك الرجل؟ الا يمكنها الوفاق معه في أي شيء؟

لم تجد رايان بجانبها، فهل اغضبته حتى انه تركها ورجع الى منزله. لكنها شعرت بيد على كتفها جعلتها تقف ساكنة.

قال لها:«ان فنجاناً من القهوة قد يصلح مزاجك...»

فقالت:«لا أريد القهوة، وشكراً لك.»

أمسك رايان برسغها وجذبها نحو المحل، وقال للساقية:«نريد قهوة لأثنين واثنين من هذه الاشياء المحشوة بالكريمة.»

فقالت المرأة البدينة وهي تبتسم له وتدل لهجتها على انها من هذه المنطقة:

«إكليل بالشوكولاته. انها لذيذة.»

كانت ماريتا تنوي رفض الحلوى ولكن اذا قالت «لا وشكراً لك» غضبت صاحبة المحل اللطيفة التي تعتز كثيراً بما انتجته يداها.

قالت ماريتا وهي تنظر في كيس النقود لتخرج العملة الصغيرة:«سأدفع ثمن طلبي.»

رد يقول:«تأخرت لأني دفعت الثمن.»

ثم رفع فنجانه عالياً وتمتم يقول:«في نخب علاقتنا المستقبلية.»

رشف القهوة ونظر اليها بتمعن وأردف يقول:

«مهما كان شكلها.»

لكن ماريتا ردت تقول:«ليست لدي النية كي أقيم أي علاقات معك في المستقبل.»

ضحك رايان وهو يعطيها قطعة الحلوى الثانية، التي قبلتها بعد تمنع ولكنها لم تحسن أكلها، فقد وجدت الكريمة طريقها الى جانبي فمها وذقنها. وقال لها رايان ساخراً:«لست معتادة على الخشونة.»

«وهل انت معتاد على ذلك؟»

«بكل تأكيد. قلت لك ان العالم بأسره هو مسكني فعشت معتاداً على الخشونة.»

حاولت ماريتا ان تجد منديلاً لتنظف بقايا الحلوى ولكنها لم تجد فقال لها:«هناك كريمة على ذقنك.»

وقبل ان تكتشف ما يرمي اليه وتعرف نيته، كانت يده تمسك رأسها من الخلف وقد بدأ ينظف وجهها. وسمعت صوتاً يقول:«رايان يا حبيبي.»

فكفت اليد التي كانت تمسك بالمنديل عن الحركة، ثم استمرت في عملية تنظيف وجه ماريتا. ولكن ماريتا استدارت لترى الفتاة القادمة.

وضع رايان المنديل في جيبه وأبقى يده فيه. ولم يبد أي ترحيب بكلام الفتاة القادمة.

قالت الفتاة وهي تنظر بفضول الى ماريتا:

«لقد خمنت ان أجدك هنا. يا حبيبي. من هي صديقتك يا رايان؟»

قال باقتضاب«قلت لك على الهاتف انني سأكون مشغولاً.»

«قدمني لصديقتك يا حبيبي.»

«هز رايان رأسه بدون مبالاة :«يا ماريتا أقدم لك دورين فوستر وهي صديقة لي. يا دورين هذه هي ماريتا نيويل.»ثم نظر الى ماريتا بطرف عينيه وقال:«وهي صديقة وزميلة، زميلة صغيرة جداً، لوالدي.»تعجبت ماريتا من وصفه لها. هل كان في نيته ان يستهين بها أمام حبيبته؟ ولمحت ذلك في نظرته لها فعرفت ان ظنها هو الحقيقة. اذن فسوف تريحه من وجودها المحرج فيمكن ان يبقى مع صديقته وحدهما.

وهنا قالت:«لو كنت اعرف انك رتبت لقاء مع الآنسة فوستر اليوم لكنت احجمت عن الحضور معك.»ثم نظرت الى ساعتها وقالت:«أرجو ان تأذن لي يا دكتور تيودور بالانصراف فسأجد محطة الأوتوبيس وأرجع الى والدك.»فعبست دورين. ثم ابتسمت وقالت:

دكتور تيودور، رايان؟ لماذا تتكلم بطريقة رسمية؟ اذا كانت صديقة للعائلة.»

رد رايان يقول:«صديقة لوالدي. ولسبب ما تعتبر الآنسة نيويل نفسها أعلى درجة واحدة فقط في السلم العملي من المرأة التي تقدم الشاي في المعمل، الذي هو في الوقت نفسه مكان عمل والدي وهي تعتبر نفسها في مستوى ذكاء منخفض فلا تنظر لنفسها وكأنها في مستوانا.»

هبت ماريتا واقفة. فكفاها ما قاله رايان. ولكنه أمسك يدها وقال:«سترجعين معي.»

ولكن ماريتا خلصت يدها بقوة بدون ان تأبه بالألم الحارق الذي سببته أصابع رايان على جلدها، وجرت نحو الجمع وتاهت بين قلوبهم الضاحكة.

سمعت ماريتا رايان وهو يلقي عليها سؤاله بينما كانت تنظر الى صورة معلقة في غرفة الطعام:«لماذا لم تنتظريني.»

كان هارفورد لم يظهر بعد. فردت تقول:«وجودي لم يكن مرغوباً فيه. فعلت الشيء اللائق الوحيد. تركتك حتى تنعم بصحبة الآنسة فوستر بدون الاحراج لوجود شخص ثالث. لو اخبرتني انك ستلاقي صديقتك...»

«ولكني لم أرتب اللقاء بصديقتي.»

«سمعتك تكلمها بالهاتف.»

«لا بدّ انك سمعتني أقول لها سأكون مشغولاً وكنت أقصد ان أقول لها إنني لن اتمكن من رؤيتها. ومن

الجلي انها ظنت بي الظنون فصممت ان تتبعني، وها هي قد نجحت في ذلك. ولكن كيف رجعت الى هنا؟»

«رجعت في الأوتوبيس.»

أخرج رزمة من جيبه وقال:«لو لم تهربي كنت سأعطيك هذه الرزمة في رحلة عودتنا.»

ترددت في أخذها فقال لها:

«هيا خذيها. فإذا كان ابي يعطيك هدايا فلم لا اعطيك أنا ايضاً؟ وعلى كل حال هذه هي طبيعة العائلة.»

«المنظار لم يكن هدية استعمله فقط حين اذهب لمراقبة الطيور مع والدك؟»

«انه هدية لا أكثر ولا اقل.»

فتحت الرزمة ورأت الهدية، فوجدت الشال الصوف الذي أطالت اليه النظر في السوق. إذن هذا ما كان يفعله عندما اختفى لفترة وغاب من جانبها. كان يشتريه لها! وسألت نفسها لماذا؟

قال:«لا تتجرأي وتحاولي ان ترجعيه لي ثانية. فإذا فعلت فأستعمله لخنقك.»

اقترب منها ورفع يديه الى عنقها.

تراجعت ماريتا الى الوراء، لا خوفاً من تهديده ولكن خوفاً من لمساته. ثم هزت رأسها وقالت:«انه جميل ولطيف منك ان تهديه لي واني اقدر ذلك جداً.»

فتح الباب ودخل هارفورد ورأت عيناه الصورة بأكملها وكان من الجلي ان هذه الصورة لم تعجبه.

تقدم رايان وأخذ الشال منها وفرده ثم وضعه على

كتفيها. كان ثوبها عاري الكتفين فشعرت بالشال الدانتيل يلامس جلدها. فرفعت عينيها الى رايان لتجد فيهما السخرية.

وبعد ان وضع رايان الشال على كتفي ماريتا بالطريقة التي أرضته أبقى يديه على ذراعيها وأخذ يدلكها بابهامه، فلم تتحرك من مكانها، قصد هارفورد المائدة وشعرت ماريتا ان السحر الذي شملها به رايان زال فتحوّل نظرها الى هارفورد في شيء من الشعور بالذنب ولكن لماذا؟ إنها لم ترتكب ذنباً فكل ما فعلته انها قبلت هدية ابنه.

بدا هارفورد شاحباً وشفتاه اللتان ظهرتا فوق لحيته مزمومتان ودفعتها الشفقة كي تذهب اليه وتفسر له كل شيء.

عندما فرغوا من العشاء قال هارفورد لماريتا وهو ينظر الى صندالها: «يجب ان تغيري ملابسك وان تنتعلي حذاء سميكاً للمشي، وترتدي ملابس تناسب ظروف المخزن.»

أضاف ابنه قائلاً وهو يبتسم: «وتضعي على رأسك شالاً حتى تبعدي الخفافيش عن الوصول الى شعرك.»ثم ضحك عالياً عندما رأى نظرة الخوف التي بدت على وجهها.

رد عليه والده بشدة:«كف عن إخافتها يا رايان، فأنت تعرف جيداً ان هذا ليس صحيحاً.»

هز ريان كتفيه وتركهما.

بدلت ماريتا ملابسها، وارتدت سترة زرقاء سميكة

وبنطلوناً من القماش الجينز وسترة بيضاء برقبة عالية. وسارت مع هارفورد مخترقة الحقول بخطوات حذرة لعدم استقامة الأرض وطراوتها.

فجأة قال البروفيسور:

«أنصتي الى هذا الصوت الخشن.»

سمعت ماريتا أصوات الطيور وخفقان اجنحتها حولهما، ثم خفت هذه الاصوات عندما ذهبت الطيور.

أخبرها هارفورد بأسمائها. وقال:

«كانت تعرف باسم طيور الشر والسبب هو ذلك الصوت والضجيج الذي تحدثه في ليالي الصيف.»

بدا المخزن قديماً بنيت جدرانه من الصخر والطوب، والمدخل لا باب له، والنوافذ عبارة عن فتحات مستطيلة، وسقفه منحدر مصنوع من القرميد.

رفع البروفيسور عينيه عند سماعه زقزقة الطيور فوق رأسه وأشار بيده الى الطير وهو يسميه لها، قال وهو يبتسم لماريتا:

«انه يبني عشه من الطين تحت زوايا إفريز المنازل والمخازن.»

ونظرت ماريتا الى المخزن فوجدت انه يتطلب منها الشجاعة كي تدخل هذا المكان المعتم المجهول لديها.

لما اقتربا من المدخل قبض هارفورد على ذراعها، وأجبرها على الوقوف.

كانت الشمس في طريقها الى الغروب عندما رأت فوق

رأسيهما شيئاً مثل الشبح الأبيض، يرفرف بجناحيه ويبحث عن الطعام، وكان لون الريش في ظهره منقطاً بنقط ذهبية، أما ريش وجهه وبطنه فكان أبيض ناصعاً. بقي في الجوّ ثم انقضى على فريسته. ولم تتعرف ماريتا على نوع فريسته السيئة الحظ لأن الظلام كان قد ساد المنطقة. ارتفع الطير في الجو ثانية حاملاً فريسته بين اظافره. فهمس هارفورد:

«هذه هي بومة المخازن. تعالي»

وقادها في الطريق الى المبنى وهو يقول:

«لا تخافي من شيء.»

«وضع يده لبرهة على ظهرها يربت عليه كي يطمئنها فتبعته مكرهة. ترى هل تقابل خفافيش كما أكد لها رايان؟ ولكنها لم تجرؤ على الافصاح بمخاوفها الى هارفورد اذ سوف يطرد هذه المخاوف عن خاطرها برقة ولكن بحزم، ويعتبرها مخاوف أطفال.

قال هارفورد وهو يبتسم لها: «سوف تعود البومة لتوها، والى ان تعود، علينا ان ننتظر. اجلسي بجانبي يا ماريتا. ان الصبر مرغوب فيه في هذه الحالة. والمزيد من الصبر. واني ألاحظ انك قلقة وذلك لصغر سنك. فهل تظنين ان لديك الصبر الكافي؟»

كانت ماريتا متأكدة ان ليس لديها الصبر الكافي ولكنها لم تجرؤ ان تخبره بذلك فأومأت بالموافقة. سر لذلك وضغط على يدها شاكراً، بعد ذلك وجه كل اهتمامه الى الكاميرا استعداداً للتصوير.

www.elromancia.com

لم يبقى بعد ذلك شيء سوى الانتظار في سكوت تام، وكانت هذه هي تعليمات هارفورد. فقد قال لها ان اية حركة تتسبب في إخافة البومة فتطير هاربة.

سمعا صوت رفرفة أجنحة في المدخل ثم حجب ضوء القمر لبرهة، ودخلت البومة بدون صوت بجناحيها العريضين وحطت على أعمدة السقف الخشبية، وكانت البومة ظاهرة، في ضوء القمر، بلون صدرها الأبيض. وبرقت عيناها فحبست ماريتا أنفاسها.

كان هارفورد بلا شك متمرساً في فن تصوير الطيور. وكان هذا واضحاً من طريقة تصويره بسرعة وسكون. ولم تصدر الكاميرا، والمصور، الا اقل صوت ممكن وفوجئت البومة فلم تتحرك ولكن اقلقها صوت آخر غير صوت الكاميرا يبدو انه كان آتياً من جهة الباب.

هبت البومة طائرة وهي تطلق صوتاً طويلاً يشبه العويل، وأخذت تدور حول المخزن بجناحين مبسوطين وهي تهبط وتعلو لبرهة فوق رأسيهما.

شعرت ماريتا بتوتر لا يحتمل في اعصابها جعلها تطلق صيحة تميل نحو هارفورد ظناً منها ان البومة سوف تنقض عليهما وتعتبرهما فريسة لها... فأحاطها هارفورد بذراعيه وهو يحنو عليها بينما فرت البومة من المدخل واختفت اخيراً في ظلام الليل.

قالت ماريتا: «اني آسفة.اني...»

ولم تتمكن من اكمال كلامها لأنها شعرت بالخوف ثانية وهو خوف اعظم من الخوف الذي سببه لها صوت البومة في هربها. ماذا يقول لها هارفورد؟ ولماذا يهمس؟ وقد ترك تحفظه جانباً وأخذ يتحسس وجنتها ويلمس شعرها ويداه تشدانها اليه.

قاومته ماريتا ولم تفهم قصده وسمعته يقول:

«يا عزيزتي ... يا فتاتي العزيزة.»

وشعرت به يتحسس وجهها في الظلام ويقول:«دعيني اقبلك... فقد انتظرت طويلا طويلا... وبدا الوقت لا نهاية له فقد ظننت انك لن تأتي...»

ثم اكتشفت اصابعه في فمها فقال:

«دعيني أقبل شفتيك... انهما... انهما...»

ولم تسمع باقي كلامه، فقد عانقها.

ولم تقو ان تفعل شيئاً. ثم شعرت في قرارة نفسها بالعطف على هذا الرجل اذ بدأت الآن تكتشف مدى حنانه واحتياجاته العاطفية.

بدأت ماريتا ترتجف خوفاً عليه وخوفاً عليها. لما قد يحدث لها معه. ولا بد ان خوف ماريتا ظهر له بوضوح اذ وخزه ضميره وأرجعه الى الواقع من الدنيا التي كان هائماً فيها. فرن صوته طبيعياً عندما قال:«لا داعي للخوف مني، فلن افعل شيئاً يضرك. كيف أفعل ذلك. وأنا...»

ثم مسح وجهه بيده وهو مضطرب وحائر.

شعرت بسرور لأنها لم تصده، فقد كان قلبها يجيش بالحنان والشفقة عليه. وفجأة سطع نور بطارية

فبدد الظلام ووقع نوره بقسوة على الشخصين المتعانقين.

لا بد ان القادم هو الذي سبب الصوت الذي دفع البومة الى الهروب؟ ولا بد ان القادم كذلك شاهد كل ما حدث من قبلات وهمسات وتجاوب.

ثم سمعا صوت تنفسه الغاضب العميق ورأيا طوله واتساع كتفيه معكوسين في فتحة الباب فعرفا من يكون القادم.

همس هارفورد يقول وهو يمسح عينيه:

«ولدي... ولدي...»

تسلط نور البطارية على ماريتا ومرّ على طولها كنظرة غاضبة تدينها، وأخيراً اختفى النور وساد الظلام ثانية، وحملته قدماه خارج المبنى.

الفصل الخامس

عند رجوعهما عبر الحقول أخذا يتعثران في ضوء القمر، هارفورد معتذراً:«مضت سنوات كثيرة منذ ان انقطعت عن صحبة النساء. وفي الحقيقة كان ذلك منذ ان توفيت زوجتي. ولم أخن ذكراها بل بقيت عاطرة في خاطري دائماً. والآن وقد قابلتك...»

ثم كفّ عن الكلام وأخذ بذراعها وبعد برهة أضاف:

«قولي لي يا ماريتا، هل تمانعين إذا اظهرت لك عواطفي من وقت لآخر إذا... عانقتك؟»

تسببت هذه المذلة في ان تنهمر دموعها لأنها صادرة من رجل مرموق ونبيل، وتذكرت ماريتا ما قاله ابنه عنه من انه ما زال يتمتع بحيوية زائدة. فإذا سمحت لهارفورد ان يعانقها ثانية وإذا قالت له انها لا تمانع في ذلك فسوف تتغير علاقتهما كلية، لا يمكن لرجل ان يستمر في عناق اي امرأة بدون ان يقوده ذلك الى... إلى ماذا؟ الشعور بالتكامل او الحب؟ لا... فهي لا تحب هارفورد ولكنها تكن له الاعجاب والشفقة العميقة، فإذا قالت له لا... لا بدّ ان يسبب ذلك له الماً بجانب المهانة.

همست تقول:«لا امانع في ذلك.»

www.elromancia.com

سمعته يتنهد بارتياح مما يدل على التخلص من الحيرة وانتعاش الأمل في نفسه.

مرّ اليوم التالي، وشعرت بخوف من احتمال مقابلة رايان، ولكن ماريتا لم تره ثانية الى ان حان وقت العشاء في تلك الليلة.

ابتسم رايان وكأنه يجد في تفحصه لماريتا شيئاً مضحكاً، ولكن وراء ابتسامته برود كالثلج.

فهو لم ينس المنظر الذي رآه في المخزن عندما شاهد والده يأخذها بين ذراعيه. وإذا كان لم ينس فماريتا لم تغفر له تدخله في تلك اللحظات من الحنان والكلمات التي تنطوي على اعمق درجات الاخلاص من رجل في أشد الحاجة إليها.

وبعدما تفحصته أخذ بدوره ينظر الى بلوزتها البنفسجية اللون، بدون أكمام والتنورة المنقوشة بالزهور البنفسجية. ونظر بجرأة الى وجهها وعينيها الحائرتين وحاجبيها المقوسين وشفتيها...

قالت له وهي غاضبة غضباً أدهشها:«أعرف ما تفكر فيه. ولكنك مخطىء.»

رفع حاجبيه وقال:«عندما انظر الى امرأة جميلة لا أهتم بالتفكير فيها بل بالاحساس بها.»

حمل كوبي عصير، وكانت على وشك رفض العصير عندما دخل هارفورد الغرفة وقال:«هل تقدّم الى ضيفتنا العصير يا رايان؟»

ثم أخذ الكوب من ابنه وقدمه الى ماريتا. وبدا الأب سعيداً وهو يقول:«انتظري.»

ثم صب لنفسه كوباً وعاد ليقف بجوارها قائلاً:
«لنشرب نخباً، إليك وإلي.»

ورفع كوبه عالياً ثم التفت الى رايان وقال له:
«انضم إلينا يا رايان.»

ترك رايان كوبه على إحدى المناضد ثم وضع يديه في جيبه ونظر الى والده. وكان ذلك تحدياً منه لوالده الذي لم يهتم لهذا التحدي وأولاه ظهره.

أثناء العشاء خيّل إليها ان الأب والابن اشتركا في اتفاق سري على ان يؤجلا خلافهما طوال هذه السهرة.

وبما ان هارفورد يسعده ان يحدث اي شخص عن حياة الطيور، سره جداً مناقشة الموضوع مع ابنه. استمر الحديث على المائدة الى ان تناول الجميع القهوة.

وفجأة تمنت ان يكون ذلك اللطف الذي ابداه رايان حقيقياً وان يكون البرود الذي تخيلته من قبل كامناً وراء ابتسامته جزءاً من قلقها.

ولما غادروا المائدة جاء هارفورد إليها، وأخذ يدها في يده وضغط عليها وقال:«يجب ان أذهب الى مخبأي قبل ان يختفي ضوء النهار. وسوف أعود عندما تغرب الشمس. أتمنى ان أجدك منتظرة عودتي. أعدك ألا اطيل بقائي هناك لمدة طويلة.»

استمر رايان يبتسم حتى ذهاب والده. ولما نظرت اليه شعرت بقلبها يسرع في دقاته. وتساءلت اذا كان قد شغف بها؟ أو اذا كان ذلك الأسلوب الساخر الذي

يبديه نحوها منذ وصولها الى منزله انتهى الى الأبد؟ تمنت ذلك من كل قلبها. وتمنت كذلك ان يقبلها هذا الرجل كصديقة.

قال لها رايان وهو واقف معها في البهو:

«سأذهب الى غرفتي العلوية.»

لم تقو ماريتا على إخفاء عبوسها. فهل يتركها بمفردها؟ ولكنه عاد يقول وهو يرقب وجهها:

«هل تنضمين الي؟ يمكنك مراقبة الأفق بينما أقوم بعملي.»

لم تخف دهشتها لهذه المفاجأة وسألته:

«ألا تمانع في وجود شخص آخر معك؟ وهل أفسد تركيزك على عملك؟»

طرفت عيناه ثم قال:«لن تفسدي تركيزي على عملي، فوجودك كوجود أي امرأة أخرى معي...»

وبدا كأن اللطف الذي شعرت به ماريتا قد انقشع قليلاً ليكشف عن سخريته المعهودة. ولكن سرعان ما بدا لطيفاً، ثانية إذ ابتسم ابتسامة عريضة جعلت قلبها يخفق، وتأكدت انها كانت تتخيّل أنه يسخر منها.

كانا واقفين أمام المدفأة حيث نقش بين الألواح الخشبية التي تكسو الحائط نموذج طبق الأصل لشعار الأسرة الموجود فوق المدخل الرئيسي للمنزل، ورسمت عليه أمواج البحر وطيور تحلق نحو الأفق ورأى رايان ماريتا تنظر الى الشعار فسألها قائلاً:

«هل تفهمين اللاتينية؟»

هزت رأسها بالنفي فقال لها: وراء الأفق تكمن الاحلام ووراء الأحلام توجد الحقيقة. وهذا معناه في لغة القرن العشرين، انك قد تهربين من الحقيقة، كما يمكنك ذلك، ولكن في النهاية لا بد من مواجهتها مهما كانت مرارتها.»

ثم اشار بيده الى السلم وقال لها:

«اتبعيني.»

تركها في مكتبه لبعض الوقت. تجولت ماريتا في غرفته وهي تعجب كيف سمح لها بدخولها والاقتراب من اجهزته ومعداته.

فنظرت الى الخرائط الجيولوجية المتعددة الألوان والتي تغطي جدران الغرفة. وبجانب الميكروسكوب وجدت العدسات اليدوية والزجاجات التي كتب عليها ماء النار، ومئات من عيّنات الصخور مرصوصة على الرفوف وألواح الزجاج الصغيرة للعينات التي تفحص بالميكروسكوب.

تناولت قطعة من الصخور فعجبت لألوانها. وفجأة سمعت صوته يكلمها ففزعت ولم تشعر به وهو يراقبها:«هذه الصخرة من استكلندا.» ثم تقدم ووقف بجانبها، لامست ذراعه ذراعها. فهل كان يفعل ذلك عن عمد؟ ولكنها تجاهلته. ثم اشار الى قطعة الصخر وقال وهو يشير الى ألوانها:«ان هذه الخطوط المتموجة من الأسود والأبيض والبني تكونت من الحرارة العالية والضغط وهي عوامل أثرت على الصخور وذلك بضغطها حتى غيّرت بعض

المعادن التي تحتويها وحوّلتها الى خطوط متوازية.»
ان هذه القطعة من الصخر بالذات هي اقدم قطعة في المملكة المتحدة بأسرها.»
ثم قصد مكتبه وأخذ يقلب في رزمة من الورق وقال:
«وهذه تعتبر حقبة قصيرة من الزمن يتعامل الجيولوجي معها، وهذا الرجوع الى الماضي السحيق لا يمكن للشخص العادي ان يفهمه.»
ابتسمت له، وفكرت ان تمازحه وهو في هذه الحالة من السرور فقالت له:«ولماذا لم تضف تلك الكلمات الثلاث التي تثير غضبي مساعدة المعمل الصغيرة.»
فرفع رأسه ليرى ابتسامتها المتحدية، ولكن تلك الابتسامة ماتت على شفتيها عندما لمست تغير مزاجه.
رجعت ماريتا الى الواقع عندما سمعت صوته يقول:
«ماريتا.»
جلس وراء مكتبه بهدوء. فراحت تتذكر ما قرأته في احد كتب هارفورد. حيث طالعت ان بومة المخزن لا تحدث اي صوت عندما تنقض على فريستها. وقال لها رايان بصوت هادىء ولكنه ينطوي على لهجة آمرة لم تقو على تجاهلها:«تعالي هنا يا ماريتا. ستشاهدين شيئاً جميلاً.»
وقفت بجانبه ونظر إليها فرأى ابتسامتها الرقيقة.
«هل يمكنك استعمال الميكروسكوب؟ وهل تعلمت ذلك في مجال عملك؟»
هزت له رأسها بالايجاب. ثم اردف يقول:

«هذا ما فسرته لك من قبل، ميكروسكوب جيولوجي. وهذا الجزء منه يسمى المسرح ويمكن لفه، سأدخل فيه عينة معدن من مجموعة تسمى كلوريتش.»
أخذت تراقبه فرأت أصابعه المدربة وهي تحركها بمهارة الى ان وصلت الى مكانها ثم اكمل يقول:
«والآن أضفت العدسة الضوئية، انظري داخل الميكروسكوب.»
ثم رجع خطوة الى الوراء لتتمكن من النظر في داخله، وأطلقت صيحة دهشة وهي ترى التغيرات التي تطرأ على الألوان المختلفة. قال لها: «حركي اللوحة الزجاجية.»
فلما فعلت كما أمرها، رأت الألوان تتغير وتتداخل. فالألوان الخضراء الجميلة تتدرج وتذوب في الألوان البنية التي تميل الى الاحمرار.
رفعت نظرها، وكان وجهها سعيداً مما رأت وقالت:«هذه خرافة لا يصدقها عقل.»
حبست انفاسها عندما رأت التعبير الذي انطبع على وجهه. وكان واقفاً قريباً جداً منها ويجعلها تضغط على منضدة التجارب فبدأ نبضها يسرع بالاثارة والخوف.
أما وجهه فقد خلا من كل التعبيرات الحنونة التي كانت تكسوه طوال هذه الأمسية.
لم تجد به أي أثر للسماحة ولا الابتسام. وتغير تعبير فمه الى مرارة واحتقار. إذن هذا ما كان كامناً وراء اعتدال مزاجه، ولم يكن مجرد أوهام.

وضع يديه على كتفيها وأدارها إليه بشدة، فأطلقت صيحة ولكنه لم يأبه لها ثم قال:

«ماذا تريدين؟ وما الذي تسعين اليه؟ هل هو مركز والدي؟ ام ماله؟ أم منزله؟ انه ليس الحب الذي يجعلك تسمحين لرجل يكبرك بثمانية وعشرين عاماً، ان يغازلك في ظلام احد المخازن.»

«ماذا تقول؟»

كانت تتكلم هامسة وقد شحب وجهها ثم أضافت:

«ماذا تعني؟ هل تظن أني احاول جعل والدك يقع في حبي ويتزوجني؟»

«وإذا كان الامر غير ذلك فأنت تدهشينني. إذن ما هو عرضك؟ هل هو الحب بدون ارتباطات؟ إذا كان الأمر كذلك فأنا الرجل الذي ترغبين. لأني من جيلك. وفي امكاني تلبية طلباتك. فهل يقدر والدي على ذلك؟»

ثم مد يده وطوق بها خصرها ورفع يده الاخرى ووضعها على عنقها وأمال رأسها الى الوراء حتى اطلقت صيحة ألم.

رأى الدموع تملأ عينيها، وعندئذ هوى، مثل الطائر المفترس على فريسته جمدت بدون حراك، وبعد ذلك أزاحها جانباً بقسوة. وقصد النافذة وهو يصلح من ترتيب شعره.

استدار وارتكز على حافة النافذة وقال لها بغضب:

«والآن اتركي والدي لحاله. وإذا لم تكفي عن الجري وراءه فسألقنك درساً وراء درس الى ان اجعلك تخضعين لي خضوعاً كاملاً. وعندما يحين الوقت

كي يتخذك زوجة له، سيكتشف انه جاء متأخراً لأنك اصبحت لي.»

ثم تركها وغادر المكان.

أخذت ماريتا تروح وتجيء في غرفتها حائرة. فوجودها كضيفة في هذا المنزل لم يعد ممكناً. في هذه الليلة وهو يشربون شراب الشوكولاته سوف تخبر هارفورد بكل هدوء، أن والدتها بحاجة إليها وعليها ان ترحل. وإذا كان رايان حاضراً فسوف تواجهه بهدوء مهما كلفها ذلك من جهد.

وعندما دخلت غرفة الاستقبال وجدت هارفورد وحيداً، فنظر اليها وقال لها بارتياح:«تمنيت ان تحضري قبل رايان.»

ثم اخرج صندوقاً مربع الشكل وقال:

«ذهبت بعد الظهر واشتريت هذا بينما كنت مع رايان. ولم أذكر ذلك عند تناولنا العشاء لأني أردت ان نكون وحدنا عندما أقدمها لك.»

ثم لمس يدها وقال:

«يا عزيزتي ماريتا. تقبلي هذه الهدية فقد اشتريتها لك.»

فخفق قلبها. هذه هدية اخرى؟ ماذا تفعل؟ ماذا يكون ردّ فعل رايان إذا قبلت هذه الهدية؟ انها خائفة منه.

فهتفت تقول:«لكن يا هارفورد لا يمكنني ذلك.»

قال باهتمام:«الكاميرا يا ماريتا هي قطعة أساسية من الأجهزة العلمية التي يستعملها المهتم بمراقبة الطيور. وبما أني لن أتمكن من إعارتك الكاميرا

الخاصة بي دائماً فسوف تحتاجين الى هذه الكاميرا عندما نخرج سوياً.»

هزت رأسها وقالت:«يا هارفورد... انني...»

إنني ماذا؟ إنني لن اتمكن من الوصول الى مستواك في الخبرة واهتمامك الزائد بتلك الناحية؟ هل تقول انها لن تبقى هنا طويلاً كي تستعملها؟ نعم هذا ما يمكن قوله:«يجب ان أرجع الى منزلي يا هارفورد، فوالدتي طلبت مني ان أعود.»

رفع يده وقال:«لا داعي ان تقلقي على والدتك... كنت أنوي ان اخبرك اثناء تناول العشاء، ولكنني كنت منبهراً بحديث ابني، ولذلك نسيت إذ عندما رجعت من المدينة بعد الظهر تكلمت والدتك هاتفياً. فقلت لها إنك في الخارج. ولكنني ثرثرت معها لمدة وطلبت مني ابلاغك انه يمكنك البقاء طالما أريد منك ذلك. في الحقيقة وجهت اليها دعوة مفتوحة لزيارتك فوعدت ان تحاول الحصول على إجازة من عملها وتزورنا.»ثم عبس قليلاً وهو يقول:«ولا ارى اي داع الا تقبلي الكاميرا يا ماريتا.»

وهنا دخلت السيدة فيسك حاملة صينية فيها اقداح شراب الشوكولا. ولما شكرها هارفورد قالت انها سترى هل يمكن إقناع الدكتور رايان بترك مكتبه والنزول أم يطلب منها إحضار الشراب اليه. وتمنت ماريتا ان يفضل البقاء في مكتبه.

«ماذا يا عزيزتي؟»قال هارفورد ذلك برقة وهو يشير إليها ان تجلس بجانبه:«بدأت بالمنظار ثم بالكاميرا.

لا يمكنني الاستمرار في تلقي هداياك من غير ان...»

لكنها كفت عن الكلام. وكانت تود ان تقول من غير ان اعطيك شيئاً مقابل ذلك. ولكن كلمات رايان كانت ترن في أذنها فقالت بلهجة ضعيفة:«بدون ان أعطيك شيئاً يوازيها.»

فصعق هارفورد وقال:«لا تفكري حتى في ذلك. لست رجلاً فقيراً. وسوف اخبرك ذات يوم المزيد عن حياتي، ولكن لم يحن الوقت بعد.»

ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:«لم يحن الوقت بعد.»

وبدأ كأنه انتقل الى عالم خاص به. فشربت ماريتا الشوكولاته وظل شراب رايان على الصينية.

بعد برهة فتح الباب ووقع نظر القادم على ماريتا فرأى ذراع هارفورد على الوسادة وراء ظهرها. ورأى الكاميرا.

جمدت عيناه لما وقع نظره على ماركة الكاميرا وقدر ثمنها فقال وهو يتكلف المرح:

«اليوم عيد ميلادك؟»

«كان يعرف الجواب قبل ان يلقي السؤال. فردت ماريتا تقول وهي تنظر الى الهدية وتضع اصابعها عليها:«لا.»

رد والده يقول وهو يبتسم:«اعطيتها الكاميرا. فسوف تحتاج اليها لتساعدها في تنمية اهتمامها بمراقبة الطيور.»

«وهل ستقبلينها؟»ألقى رايان على ماريتا هذا السؤال، ولم تخدع بالهدوء الذي لمسته في لهجته

والذي خيّل إليها انه سؤال بريء، فقد استشفت من ورائه انه ممزوج بالتهديد.

رفعت رأسها بكبرياء وقالت:«ولم لا أقبلها؟»

«هل تعرفين كم كلفت والدي من ثمن؟ فهي واحدة من بين اغلى الأصناف الموجودة في السوق.»

ملأ الدم وجهها فقد كانت ماريتا تجهل هذه الحقيقة، وارتفع صوت والده يقول والغضب يتملكه:

«هذا شأني يا رايان... ولا يهم كم انفق عليها.»

ثم جذب ماريتا اليه وطبع قبلة على خدها وقال:

«فإذا أرادت ان اعطيها نصف ثروتي...»

اخذ رايان رشفة من الشوكولاته الباردة، ثم وضع القدح على الصينية بقوة وقال:«أرجو ان تسمحوا لي بالذهاب.»ثم ترك المكان وخرج.

* * *

وفي صباح اليوم التالي أخبرتها السيدة فيسك ان الدكتور رايان تيودور غادر المنزل وسافر، ولا تعرف وجهته. فقالت:«ربما الى لندن يا آنسة نيويل. احياناً يذهب بهذه الطريقة ولكنه يقول لي عن وجهته. أما هذه المرة فلم يخبرني بكلمة واحدة ويبدو انه ذهب الليلة الماضية لأن سريره لم يستعمل.»

لم تظهر ماريتا اهتماماً كبيراً بالأمر ونظرت الى مكان هارفورد على المائدة فوجدته خالياً، فعرفت انه لم يتناول إفطاره بعد، ثم قالت:

«سأنتظر البروفيسور تيودور يا سيدة فيسك.»

انسحبت السيدة فيسك، وفكرت ماريتا في غضب رايان من تصرف والده. فاهتمامه يرجع الى نوع من الحب الأبوي. ولكن هل كان تصرفه في ظلام المخزن بناء على عاطفة أبوية؟ وكلمات الحب التي همس بها والعناق؟

دخل هارفورد وقال:«انك تبدين منتعشة ولطيفة كعادتك دائماً.» وأشار إليها بأن تأخذ مكانها على المائدة ثم قال:

«لا أرى مكاناً لرايان، فهل تناول إفطاره؟»

إذاً فحتى والده لا يعرف بذهابه.

«تقول السيدة فيسك إنه سافر.»

تقبل هارفورد الخبر بهزة من رأسه وقال:

«ربما ذهب الى لندن حيث يوجد المكتب الأوروبي الرئيسي لشركة البترول التي يعمل فيها.»

ثم نظر الى ساعته وقال:«لا بد انه ذهب مبكراً.»

«السيدة فيسك تظن انه سافر البارحة. فسريره لم يمس.»

رفع هارفورد حاجبيه دهشة ثم هز كتفيه وقال:

«هذه هي طريقته. فهو لا يحافظ على شعور الغير، إذا طرأت له فكرة ينفذها في لمح البصر. ولكن لن نضيع وقتنا في التحدث عن ولدي لأنني ذاهب الى المخبأ ثانية. فهل تأتين معي؟»

«ليس علي الا ان أوافق.»

ولما جلسا معاً في المخبأ كانت ماريتا تنظر الى الجهة التي يوجه هارفورد نظرها اليها. وتصمت

كلما طلب منها ذلك. وتلم بكل المعلومات التي يلقيها عليها ثم تنساها لتوها.

كانت افكارها تقودها الى التمتع بأشجار الغابة والزهور.

«إنه الطير الذي انتظره إني أميز غناءه وهو صوت مثير. انظري يا ماريتا انظري هناك. استعملي منظارك... هل يمكنك رؤيته الآن؟»

حاولت ماريتا، ان تراه بالمنظار. ولاحظ هارفورد محاولتها اليائسة فقال لها ليساعدها:

«ان ظهره بني اللون قاتمة. وهو صغير الحجم لكنه مميز فلن تخطئيه.»

لكن ماريتا لم تتمكن من رؤية الطير، فشجعها هارفورد قائلا:«انظري ثانية ولا تيأسي بهذه السرعة.»

ولكن كيف تقول له انها خائفة ان تنظر ثانية حتى لا ترى ابنه يظهر مرة أخرى في عدسة المنظار وهو قريب منها بحجمه المكبر؟

قالت وهي تقاوم رغبته في إعادة الكرة للعثور على الطير:«لا فائدة في نجاحي... فأنت تضيّع وقتك معي يا هارفورد.»

وفكرت... ان كل ما تريد معرفته هو ذلك الخيال الذي رأته. وماذا تعني تلك الرؤيا؟ هل هي ترى مجيئه ثانية. وهل تود ان تكون بين ذراعيه ثانية.

لا بد ان هارفورد قرر ألا يضغط عليها بشدة. لأنه تركها بعد ذلك لأفكارها وأخبرها، وهما يتناولان

الغداء ان اجتماع هواة الطيور سيتم بعد اربعة أيام، وأنهم سيتناقشون في الموضوع وينفقون ما بقي من وقت في الحديث. وعندما كان هارفورد يحييها بعد انتهاء السهرة مال عليها وقبلها برقة وهمس قائلاً:

«الا يغضبك هذا يا ماريتا؟»

فهزت له رأسها بالنفي لأنها لم تشأ ان تغضبه، فليس في قبلة هارفورد ما تعترض عليه. ثم قفز عقلها أربعاً وعشرين ساعة الى الوراء، وأخذت تفكر بدون إرادتها في ابنه.

مرت ثلاثة أيام بدون اي خبر عن رايان. وشعرت ماريتا ان الوقت يمر ببطء وكأنها تنتظر شيئاً، وكانت تقصد المخبأ كل صباح بإصرار وتمضي الساعات كلها حتى وقت الغداء بجانب هارفورد والسهرة في تكريس نفسها لقراءة كتب هارفورد ولكن لم تكن لديها القدرة على التركيز. وفي الليلة الثالثة كانت وحدها لفترة فألقت بالكتب جانباً وقصدت النافذة لتطل على الحديقة...

اشمأزت ماريتا من نفسها، فاستدارت الى الغرفة إذ يجب ان تكف عن تعذيب نفسها بالتفكير في رايان تيودور. ثم شعرت بالقلق وقصدت الهاتف، وكان هارفورد قد سمح لها باستعماله عندما تريد، سمعت صوت والدتها في الجانب الآخر من الخط واضحاً منشرحاً فرفع من روحها المعنوية وأعطاها الشعور بالراحة والعزاء.

سألتها والدتها عن حالها وهل هي بخير وهل تتمتع بوقتها ثم قالت:«تكلمت مع البروفيسور ووجدته لطيفاً جداً. كان قلقاً عليك وأراد ان يعرف اذا كنت سعيدة هناك.»

ثم قالت لها باهتمام:«هل انت سعيدة؟ وهل تريدين ان أحضر للاقامة معك؟ فقد قال لي إنه يرحب بي في اي وقت أشاء.»

«فكرت ماريتا... ما معنى حضور والدتها للاقامة هنا؟ ان حضورها سوف يزيد الأمور تعقيداً.وقالت لوالدتها:«لا تحضري لأجلي. وطبعاً إذا أردت ذلك...»

ولا بد ان والدتها لاحظت عدم تشجيعها فلم تناقشها في الموضوع اكثر ولكن ماريتا قالت:«إن رايان ابن هارفورد...»

ارتفع صوت جوزفين بالاهتمام وقالت:

«هارفورد، هل هذا هو اسم البروفيسور؟ وهل له ابن؟ لم تقولي عنه شيئاً. وما عمره يا عزيزتي؟ وماذا يعمل؟ وما شكله؟»

ردت ماريتا على كل اسئلتها فهي تعرف ماذا تعني والدتها وماذا تأمل. البروفيسور كبير في السن، أما ابنه، وفي حساب سريع يمكنها تقدير سنه، فهو مناسب لها. ثم قالت:«يسعدني ان يكون بجانبك شخص يقارب سنك. لا تقلقي عليّ يا عزيزتي ماريتا وابقي كما تريدين.»

جاء أصدقاء هارفورد الى المنزل. اخذوا ينظرون بدهشة الى فخامة البهو.

كان هارفورد قد ابقى ماريتا الى جانبه. وكان يبدو انه يعرضها لهم ليفهموا انها صديقة حميمة، ويضع يده على ذراعها وكأنه يوهمهم انها اصبحت فرداً من العائلة وجزءاً من حياته.

لم يكن رايان هنا، بل هو يبعد عنهم بأميال كثيرة. فهو في لندن وعلى ذلك فإن الذي لا يراه لن يعرف به. أغراها ذلك الخاطر فجلست بجانب هارفورد وهي تشعر بالراحة والاطمئنان.

كانت هناك نظرات موجهة إليها من اصدقاء هارفورد... النساء ينظرن بدهشة والرجال بطيبة وشيء من الحسد.

كان الحديث يدور بالطبع حول حياة الطيور. وعن ملاءمة منطقة نور فولك لمراقبتها، ووجود أندر الأنواع فيها. وعن قلقهم وخوفهم من التلوث الذي يؤثر على الأنهار والبحيرات في نور فولك، فلا بد من عمل شيء للحفاظ على المنطقة.

ثم فتح الباب، ولبرهة انتقل الاهتمام من الشخص الذي كان يحادث المجموعة الى القادم الذي بدا على عتبة الباب طويل القامة وشعره البني الفاتح على جبهته يطوف بنظره في المكان فوقعت عيناه على والده اولاً ثم على الفتاة الجالسة بجانبه وسمع أحد الضيوف يقول:«اهلاً رايان.»

ثم ردد التحية الحارة كثيرون غيره.

هز رايان رأسه محيياً، وابتسم لكنه لم ينسحب بل أخذ يبحث عن مقعد يجلس عليه. وبالصدفة نظرت

المرأة الجالسة بجانب ماريتا الى الساعة الموضوعة على المدفأة وقالت:«لا بد ان أذهب فلدي موعد في نورويتش. اني اكره الذهاب قبل تقديم الطعام. ولكن...»

انفجر الحاضرون ضاحكين ثم اضافت:«خذ مكاني يا رايان واجلس بجانب هذه الشابة اللطيفة صديقة والدك.»

شعرت ماريتا بقلق عند سماعها هذا الكلام. لكن هارفورد ارتاح لها فنظر الى ابنه وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه.

لاحظت ماريتا هذه الابتسامة وهي تلتفت إليه فتعجبت لها. لأنها لم تكن ابتسامة ترحيب بل ابتسامة انتصار. وكان الأجدر به ان يرحب بابنه بعد هذه الغيبة الطويلة، لا ان يستفزه. ثم سمع والده يقول:«نعم يا رايان. اجلس بجانب شابتي اللطيفة.»

نظر ابن البروفيسور طويلاً الى صديقة والده الشابة، ثم مشى متمهلاً نحوها ولا بد انه لاحظ احمرار وجهها وحركاتها المتوترة، وهو يأخذ مكانه بجانبها.

ابتدأ احدهم بالكلام لكن ماريتا لم تتمكن من سماع ما يقولون بل كانت حبيسة في موقف محرج بين الأب وولده، ثم همس رايان لها قائلاً منتهزاً ارتفاع صوت احد المتكلمين:

«لا تخافي يا حبيبتي. فلن آكلك... الآن... سأبقى هذه المتعة الى ما بعد.»

وانتابها الغضب لهذه اللهجة التي استعمل فيها كلمة التدليل، فقالت له بشدة:«لا تناديني بحبيبتي.»

ضغطت يد هارفورد على يدها وبقيت فوقها. فهو الآن يتباهى بملكيته لها امام كل اصدقائه، وهذه المرة كان ابنه بينهم.

وخلال المناقشات، التي كانت استحوذت على اهتمام ماريتا من قبل ثم بدت الآن طويلة ومملة، كانت ماريتا تشعر بوجود رايان بجانبها.

لماذا رجع في تلك اللحظة؟ ولماذا تركت له الضيفة هذا المقعد بالذات؟

شعرت ماريتا بالراحة عندما نقرت مشرفة المنزل على الباب ودخلت لتدفع عربة الطعام المحملة بالشطائر والقهوة. وبينما كان الضيوف يأكلون بشهية، انتقل هارفورد بين اصدقائه ثم جلس في آخر الغرفة مع فريق منهم. وبقيت ماريتا مع رايان. كانت غير متأكدة من حالة مزاجه فنظرت اليه ولكنه ابتسم وقدم لها إحدى الشطائر بحركة استخفاف خالية من الود. قال لها:«تبدين شاحبة ومجهدة. هل افتقدتني لهذه الدرجة؟»

لكنها لم ترد ان تهزم بلهجته هذه فردت تقول:

«وهل كنت غائبا؟ إنني لم الحظ ذلك.»

أطلق ضحكة لفتت انتباه احد الضيوف.

تقدم رجل رمادي الشعر منهما وقال:«كيف حالك يا رايان؟ سمعت انك عدت قريباً من الخارج متى ستنتهي سفرياتك؟»

«لن انهيها إذا امكنني ذلك يا سيد ويلمر. ولدت لاكون جوالاً.»

«الا تنوي الاستقرار؟» ونظر السيد ويلمر الى ماريتا وأردف يقول: «ألا توجد امرأة في حياتك تقيدك هنا؟»

فهز رأسه بشدة وهو ينظر الى ماريتا بقسوة ويبتسم: «لن تتمكن اي انثى ان تقيدني الى مثل هذا المصير، فإذا كان قدري ان أجوب العالم من خلال عملي، لا أشكو من ذلك لأنني احترم حريتي كما يحترم بعض الرجال زوجاتهم.»

عضت ماريتا على شفتيها.... الحرية... كم كرهت هذه الكلمة.

ضحك السيد ويلمر عالياً وقال:

«سيأتي يوم رايان وتجد نفسك واقعاً في فخ عينين جميلتين.»

هز رايان رأسه ثانية وقال: «تمتع بالحب ثم ألقه جانباً واذهب. هذا هو دستوري في الحياة.»

وضعت ماريتا فنجان القهوة بدون ان تكمله فنظر إليها رايان ورفع حاجبيه، لكنها أدارت رأسها وتلافت نظراته.

سأل السيد ويلمر ماريتا: «هل رأيت معالم نور فولك يا آنسة نيويل؟»

ردت عليه ماريتا بالنفي، فاستطر

«ان فيها قرى تسرّ النظر يجب ان تقوم بواجبك، يا رايان، نحو الآنسة نيويل وتريها معالم شرق

انغليا وخصوصاً المناجم التي من اختصاصك. اليس كذلك؟»

هز رايان رأسه وقال: «انك تقع في الخطأ المعهود. فهذه حفريات وليست جيولوجيا وشرق انغليا حديثة العهد نسبياً ولا تهم الجيولوجي كثيراً.»

ضحك السيد ويلمر وقال: «هكذا يتكلم الانسان الممتاز.»

«الممتاز؟ لا اظن ذلك. الحفريات مثل الجيولوجيا موضوع هام يتطلب تاريخ تطور الجنس البشري، ولكن الجيولوجيا لها مجال آخر.»

وانضم هارفورد اليهم. ورجع السيد ويلمر يصر ويقول: «تعتقد ان احد فروع العلوم يتفوق على الآخر؟»

نظر الى ابيه وقال: «قطعاً لا. ان حب العلوم هو الشيء الوحيد الذي نتشارك فيه أنا وأبي...»

قال السيد ويلمر: «القصة المعهودة يا هارفورد؟ الابن يثور على الأب؟ الجيل الجديد يثور ضد القيم التي عرفها الكبار.»

وقبل ان يتمكن هارفورد من الرد. قال رايان:

«هذا صحيح. ان قيمي الأخلاقية لا ولن تتوافق ابداً مع قيم والدي.»

رد هارفورد والغضب يملأ عينيه: «لا تتكلم عن الاخلاقيات يا ولدي. فإنك لا تملك منها شيئاً. ولن تفعل.» ثم التفت الى صديقه وقال:

«آسف يا هاري، انه صعب المراس دائماً. وقد

اصبح في سن يصعب معها ان يغير من عيوبه.»
وضع رايان صحنه الخالي وهز رأسه للسيد ويلمر وخرج من الغرفة.
تنهد هارفورد وقال:«من حسن الحظ انه لا يبقى طويلاً هنا والا ستظل الحرب سجالاً بيننا. تعالي يا عزيزتي وتعرفي بأصدقائي فإني اود ان اتباهى بشابتي اللطيفة كما وصفتك ضيفتي.»
وتبعت ماريتا هارفورد اينما ذهب. ولكن أفكارها تابعت رايان بعد خروجه.

الفصل السادس

رأت ماريتا رايان ذلك المساء. عندما نزل الى غرفة الاستقبال لتناول شراب نهاية السهرة. وبينما شرب كل من ماريتا وهارفورد الشوكولاته طلب رايان القهوة.
وبينما كانت السيدة تقدمها له قالت:
«أعددت القهوة كما طلبتها يا دكتور تيودور، ولكن لن تتمكن من النوم مع هذه القهوة الثقيلة.»
ابتسم لها رايان ابتسامة خفيفة وقال:«انا محتاج للبقاء مستيقظاً يا سيدة فيسك فلدي عمل متأخر أود انجازه، تغيبت خمسة أيام وبالرغم من ذلك لم يلحظ غيابي احد.»
«بل أنا لاحظت ذلك. فتقديم الطعام الذي لا يناسب شهية أبيك وشهية الآنسة نيويل لا أعده عملاً مسلياً. انهما يأكلان كميات ضئيلة وأنا اتساءل كيف يظلان بصحة جيدة.»
انحنى رايان الى الأمام يحرك قهوته التي وضعها على منضدة منخفضة. ولما رفع نظره اخذت عيناه تطوفان بمفاتن ماريتا التي بجانب والده. ثم قال:
«ان الآنسة نيويل، على الأقل تبدو في قوام رشيق.»

www.liromancia.com

فهم هارفورد مغزى كلامه فصعد الدم الى وجهه. وهب واقفاً. وقال:

«تعالي يا ماريتا لتنامي.»

«فتجمدت الابتسامة على وجه رايان وقال:

«وهل تحرس بابها لتبعد الذئب عنه يا ابي؟»

فبدا وجه هارفورد الملتحي بعظام خديه العالية وعينيه الذكيتين يميل الى النحول ثم قال وصوته مفعم بالألم:«لن أدعك تقترب من هذه الفتاة يا رايان... لن تمسها. هل تسمعني؟»

«كلامك جاء متأخراً.»

كان رايان يتكلم بكسل. ويميل الى الوراء في مقعده ويمسك فنجان القهوة بين كفيه ثم أكمل يقول:

«عرفتها من عشرة او اثني عشر يوماً. وانا كما هو معروف عني اعمل بسرعة، اليس كذلك؟»

ضغطت ذراع هارفورد، التي كانت تطوق كتفي ماريتا، عليها بقوة وسألها:«هل هو ... هل...؟»

فنظرت الى وجه هارفورد وتذكرت عناق رايان ورنّ صوته في مخيلتها وتهديده بمعاقبتها إذا لم تدع والده وشأنه، وإجبارها على الخضوع التام له. فهل لمسها؟ بل فعل اكثر.

نظرت ماريتا الى رايان ورأت ابتسامته الجامدة تحذرها الا تقول الحقيقة فكذبت عليه قائلة:

«لا يا هارفورد، فهو لم يمسني.»

قادها هارفورد الى الباب ورأت الارتياح يبدو في عينيه. لكن ابنه لم ينته من كلامه بل قال:

«اصطحبها حتي غرفة النوم وليس الى الفراش وتذكر انك ولدت رجلاً مهذباً وتتمتع بأخلاقيات العهد الماضي.»

التفت هارفورد بسرعة وقال للمرة الثانية تلك الليلة:

«لا تحاضرني عن الاخلاقيات يا رايان. فمستواك الاخلاقي وافتقارك الى المبادىء من حيث تصرفك مع النساء يجعلني اشعر بالاشمئزاز. وانني أكرر قولي:«دع هذه الفتاة وشأنها.»

تمكن هارفورد من اجتياز الهوة الفكرية السحيقة التي تفصلهما ورفع مركزها الاجتماعي لتكون نداً له. وربما لا تعرف سبباً لذلك. لأنها متأكدة ان رجلاً صامتاً مثله، لا يتكلم عن شعوره الداخلي ابداً، لا يمكن ان يصارحها بشيء. لكنها عرفت الآن. لأن ذراعيه طوقتاها وعانقها كما يعانق الرجل امرأة تروق لرغباته. ولم تحاول التخلص منه. ثم سمعا صوت رايان يقول بلهجة باردة وهو يمر بهما:

«أرجو المعذرة.»

جذب هارفورد ماريتا اليه وأطبق عليها بحرارة.

***

استيقظت ماريتا مبكرة في الصباح التالي. وكان الذي ايقظها زقزقة طير ألح في غنائه وهو واقف على شجرة قريبة من المنزل. فارتدت ملابسها بسرعة ولكنها لم تقفل ازرار القميص بل ربطت حرفيه فبدا جزء من وسطها عارياً. ثم فتحت الأبواب وأزاحت

الرتاج. وأصبحت طليقة كالطير في ذلك الصباح الذهبي. تمتعت بنسيم الهواء، وشعرت بالحشائش المبتلة بندى الصباح تداعب أصابع قدميها.

انتقلت عينا ماريتا الى المنزل، وبحثت في النوافذ ولكنها لم تجد أي شخص يراقبها فخلعت صندلها وألقت به جانباً، وتمتعت بملمس الحشائش الخضراء الناعمة المغطاة بالندى، تحت قدميها. حملت الكاميرا فوق كتفها وقصدت مخبأ هارفورد. لكنها لم تدخله بل صممت ان تفعل ما كانت تتمناه وتفكر فيه وهي جالسة على مقعدها بجانب هارفورد وذلك ان تذهب الى الغدير.

جلست ماريتا على البر انزلت قدميها في الماء. وراحت تحلم بينما الشمس تدفىء ظهرها وتلمع في شعاع ينزل من بين الاغصان ومن خلال جذوع الأشجار المحيطة بها.

وأخذت تفكر... إن البروفيسور لا يمكنه ان يفعل ما تفعله الآن. فهناك فترة طولها ثمانية وعشرون عاماً بين عمريهما.

سمعت صوت اقدام فالتفتت بسرعة. هل هو هارفورد؟ لا بل ابنه رفعت نظرها نحوه، فكأن ما رأت حرك وتراً من الشفقة في داخلها. وراح هذا الوتر ينبض بشكل لا يحتمل، فهو لم يذق النوم تلك الليلة.

وسألها:«ماذا بك؟ هل انت خائفة. لن أفعل بك ما يخافه والدي فأرغمك على طاعتي وأغريك؟»

ثم هز رأسه ورجع يقول:«اطمئني. فإنني عندما أنفذ

هذا العمل البربري فسوف أتأكد أولاً ان يكون لدي المزيد من القوة عن الآن. فبعد ان قضيت الليل جالساً أمام مكتبي، لن احتاج الا الى النوم. وليس للعلاقات الغرامية.»

ظلا فترة صامتين وكان سكوتهما يتخلله تغريد الطيور، ولكنها أرادت ان تنهي ذلك الصمت فقالت:«انه صباح جميل.»

لكنها لم تجد صدى لملحوظتها العادية. ثم ردّ عليها وقال بدون حماسة:«نعم...»

«كيف عرفت أنني هنا؟»

«كنت اراقبك من النافذة.»

«ألم تتمكن من النوم؟»

«أنا لم احاول ذلك.»

«ولكن كيف تقضي النهار وأنت لم تنم الليل؟»

رفع كتفه وقال:«انا معتاد ذلك ويمكن للمرء ان يستغني عن أي شيء عند الضرورة.»

تمدد على الأرض ووضع يديه تحت رأسه وقال:

«ويمكن للمرء التأقلم على الاستغناء عن اشياء كثيرة.»

لم تتأكد ماريتا من معنى كلامه. لكنه مسّ ثانية ذلك الوتر الحساس من الشفقة الذي يكمن بداخلها، ولكنها عجبت لشعورها بالشفقة نحو ذلك الرجل القاسي الأناني، فقالت له هامسة:«تقصد والدتك؟»

التفت إليها فرأت عينيه الرماديتين كسماء الشتاء تنظران إليها ببرود وقال:«السؤال في غير محله.»

شعرت ماريتا بالاحراج وأرادت ان تصلح من خطأها فقالت:«على الأقل ان لك ابا.»

رد عليها بلا حماسة يقول:

«يا له من والد.»

مرت فترة صمت. فوضعت ماريتا ذقنها على ذراعيها وسمعته يقول:«انه فقد عقله لأجلك.»

وبذلك ألقى إليها بالتحدي، ولكنها لم تشأ ان تقابله بمثله، الا انه عاد يقول بإلحاح:«ماذا تنوين عمله؟»

وبدلاً من ان ترد على سؤاله قالت:«انت مخطىء. انه يعتبرني صديقة له. ورفيقة مسلية.»

«ذلك العناق الليلة الماضية. هل يدل على انه يتخذك رفيقة له؟»

لم تعترف انه على حق فقالت:«فعل ذلك ليثيرك.»

«ليثيرني؟ هل تقصدين ليثير غيرتي؟ انك مغرورة بنفسك. فلماذا أهتم بفتاة نصف متعلمة مغرورة... هي مجرد مساعدة صغيرة في المعمل.»

ثم هبّ واقفاً وأمسك برسغيها بيدين كمخالب الطير الجارح ورفعها فوق رأسها. وقال:«أيتها الماكرة الشريرة... حاولت أولاً ان تغوي والدي. والآن تحولين اهتمامك إلي؟ فأيا منا تريدين؟ فكري في ذلك.»

ارتجفت شفتاها وترقرقت الدموع في عينيها... كيف لا يفهمها؟ فهمست تقول:«أرجوك، أنك تؤلمني.»

لكنه تظاهر بأنه لم يسمعها وقال:«متى تنوين ان تتركي والدي وشأنه.»

«إنك مخطىء. فالأمر عكس ما تظن.»

بقي ممسكاً بها لا يود ان يتركها ولكنه قال:«لكنك لا تمانعين في اهتمامه بك؟»

فهتفت تقول:«ولماذا امانع؟ انه رجل طيب وعادل وأمين وشغوف بي.»

«وطبعاً هذه الصفات لا اتصف بها.»

«نعم. لا تتصف بها فأنت قاس لا تحتمل وأنت...»

لم تكمل عبارتها لأن قبلته اسكتتها.

كانت تخاف الخطوة التالية. فأرادت ان تقف ولكنه وضع ذرفلى عنقها فأبقاها في مكانها، ثم نظر اليها والى شعرها المنسدل وعينيها اللوزيتين وإلى فمها. وتعلقت عيناها بعينيه الرماديتين، ثم ضحك فجأة وأخذ مزاجه يتغير. وقال لها:«كفي عن العراك معي ايتها الشريرة واجلسي هادئة بجانبي.»

جذبها بقوة وتنهد بارتياح وهو يدفن وجهه في شعرها ويستنشق عبيره قائلا:

«مضى زمن طويل لم أتمتع فيه مع امرأة.»

شعرت بالإثارة، فأرادت ان تتخلص منه ولكنه أبقاها بسهولة فقالت متوسلة:«أرجوك يا رايان. هذا خطأ إذ لا يجب...»

«اصمتي. أريد ان أشعر بالسلام. هذا كل ما هناك.»

كان سهر الليل كله قد أجهده فنام لتوه، ولكن ذراعه التي طوقت ماريتا لم تنثن فظلت ممسكة بها، ولكن برقة... وأمسكت عن التنفس خوفاً من إقلاقه. سمعت وقع أقدام تقترب، وبما ان أذنها كانت بجانب الأرض أمكنها سماعها بوضوح. كانت

www.elromancia.com

الأقدام قاصدة مكانها، وظنت أنها أقدام هارفورد قاصداً المخبأ.

فجاهدت حتى تخلصت من ذراع رايان ثم جلست وابتعدت قليلاً عن جانبه.

وقف هارفورد ينظر إليهما... ينظر أولاً الى ولده النائم ثم اليها، فحبست أنفاسها وسمعته يقول:

«لماذا انت هنا؟ فطورك ينتظرك.»

وتساءلت عن مدى فهمه أو تأويله لما رأى. فصممت ان تقول الحقيقة:«استيقظت مبكرة يا هارفورد ولم أقاوم الخروج واستقبال الشمس في الصباح الباكر.»

«ورايان؟»

«كان رايان يعمل طوال الليل... فلما رآني لحق بي. وبما انه لم يغمض له جفن فقد نام كما ترى.»

هزّ هارفورد رأسه وبدا كأنه اقتنع بما قالته. ثم سمعا رايان يهمس وهو يتكلم في نومه ويقول:

«أين ذهبت تلك الفتاة تلك التي كانت بين ذراعي؟»

خافت ماريتا ونظرت الى هارفورد وقالت:

«إنه يحلم يا هارفورد، ولا بد انه يفكر في صديقته.»

حاول رايان الوقوف وهو يقول:«ها هي.»

فشهقت ماريتا وقالت:«والدك... والدك هنا يا رايان.»

تركها رايان ومسح وجهه بيده ثم ابتسم وهز رأسه في حيرة وقال:«إنني أجزم بل أقسم أنك كنت راقدة بجانبي.»

ثم رقد ثانية واسند رأسه على ذراعه وقال: «نعم. كنت احلم.»

ثم نظرت ماريتا الى هارفورد وأرته الكاميرا وقالت له:«أتيت كي أصور الطيور. ولكن رايان وصل قبل ان ابدأ في التصوير و...»

«زال التوتر الذي اعترى هارفورد وقال:«يا عزيزتي ماريتا... لو كنت قد اخبرتني بغرضك للحقت بك بكل سرور... بعد تناولك الفطور.»

ثم قادها إلى المنزل وهو يطوق كتفيها بذراعه.

ولما ارتقيا الدرج تركها هارفورد أمام غرفة الطعام وقال:«تناولي فطورك ثم تعالي الى المخبأ حيث تجدينني...»

وجدت نفسها وحيدة مع رايان في غرفة الطعام. فقال بصوت ساخر:« لقد تصرفت بمهارة. هل كنت معي لتصوّري الطيور؟ إنك فكرت بسرعة فائقة، وانا انحني لك بالرغم من انك فتاة ذات تفكير محدود ولست متعلمة.»

لما استفزها حاولت الوصول اليه لتصفعه ولكنه امسك برسغها وقال وعيناه تبرقان: «إنني أملك الدليل ضدك وسوف أستعمله عندما يأتي الوقت المناسب.»

ولما شعرت بالألم أفلتت من قبضته وقالت:

«قلت الحقيقة لأني كنت أنوي التصوير. فعلاً. ولم اخترع هذه القصة. وبما ان تفكيرك ملتو تظن ان الكل له مثل هذا التفكير.»

وبحركة آلية تقدم نحوها ولكنها تراجعت الى الوراء في الوقت الذي فتح فيه الباب ودخلت السيدة فيسك حاملة صينية عليها أطباق الفطور فجلس أمامها والتقط الشوكة والسكين ثم نظر الى ملابسه وهب واقفاً وقال:«معذرة لوجودي على المائدة وانا نصف عار. فهل تحذين حذوي؟»

لم تتمكن من ان تحذو حذوه وتقفل أزرار القميص لأنها لو فعلت لا بد أن تحل ربطة القميص أولاً. فهزت له رأسها واستمرت في الأكل.

ولكنه قال لها وهو ينظر الى كتفه:

«انظري إلى آثار الاظافر هذه ودققي النظر فيها. لقد أصبت بها هذا الصباح من إحداهن عندما فقدت السيطرة على شعورها. ألا يحسن بك الاعتذار؟»

اعتذرت له واستدارت ولكن يده امتدت وجذبت ذراعها وسمعته يقول:

«اذا كشفت هذه الآثار لوالدي فماذا يظن بك. هل يظن ان احداً لم يمسك؟ وانك بريئة؟ هل يود عناقك ثانية؟ فلا بد ان يدفعك الى الوقوع معه في المشاكل إذا اكتشف انك تذهبين مع ابنه في مزاحك الى حد الخدش والقتال.»

«كيف تغيّر الحقيقة إلى نواياك الخسيسة. وانت السبب.»

تركته واتخذت مكانها ثانية على المائدة وسمعته يقول:«إنك في قبضتي الآن فتمادي في علاقاتك الغرامية مع أبي...»

جلست في مقعدها. انه يستفزها الآن عمداً. وجلس في كرسيه وقال لها:«أرجو ان تعذري هذه الملابس فماذا تنتظرين من رجل البترول الجاف.»

ثم نظر الى بلوزتها وقال:«في أي حال ان ملابسي تشبه ملابسك. فإذا أمكنك الجلوس الى مائدة الطعام وأنت تكشفين عن جسمك فيمكنني ان أفعل المثل.»

سكب لنفسه بعض القهوة ولم يقدّم لها شيئاً منها. وبعد ذلك أخذ يقرأ الجريدة ولم يتكلم ثانية الى ان قامت ماريتا لتغادر الغرفة وهنا قال:

«سوف أذهب الى نورويتش بعد الظهر لآتي بالكاميرا التي اتلفتها. هل تودين الذهاب معي؟»

«لا وشكراً. فإن لدي أشياء هامة لانجازها.»

«كما تريدين.»

ولم تفعل شيئاً مهماً كما اخبرته بل خرج هارفورد أيضاً ولم يخبر ماريتا ولكنه أكد لها أنه راجع للعشاء. واختفى رايان أثناء الصباح وقدرت ماريا انه قد تناول طعام الغداء في مكتبه.

قرع جرس الهاتف بعد الغداء مباشرة فنادت السيدة فيسك على رايان لكنه لم يحضر.

طالت فترة بعد الظهر. وكان هارفورد قد أعطاها مزيداً من الكتب عن حياة الطيور فأخذت تدرسها لمدة ولكنها ألقتها جانباً وقصدت النافذة وذلك عندما اكتشفت أنها لا يمكنها التركيز. ثم نظرت الى الساعة وعرفت انه الوقت الذي ترجع فيه والدتها من عملها. ففكرت ان تتصل بها هاتفياً

وسألتها والدتها:«هل تخرجين للنزهة، وهل تزورين الريف؟»

«إن هارفورد مهتم بمراقبة الطيور ولذا لا نخرج كثيراً. ولكني ذهبت الى نورويتش مرة واصطحبني رايان.»

«رايان؟ أنا سعيدة لأن معرفتك به زادت. وهل هو لطيف معك يا عزيزتي؟»

«لطيف معي؟»

«ليت والدتها تعلم. ثم قالت لأمها:«إنني لا أراه كثيراً. انه يجمع العمل بالاجازة. وقد ذهب بعد ظهر اليوم ليقابل صديقته.»

ردت جوزفين تقول وقد ضعف صوتها واعترته خيبة الأمل:«صديقته؟ فهمت.»

كانت ماريتا تعلم مدى تفكير والدتها. فلا بد انها تفكر وتقول :كيف يحق لأي إنسان ان يفضل امرأة اخرى على ابنتي؟

ولكن كل ما قالته جوزفين هو:«حسناً هل تريدين ان أحضر للاقامة عندك يا عزيزتي.»

إن فكرة زيارة والدتها أصبح امراً مرغوباً الآن.

أردفت والدتها تقول:«أنا مشغولة الآن ولكن ربما احضر الأسبوع المقبل او الذي بعده.»

انهت ماريتا المكالمة. ثم سمعت صوت سيارة هارفورد فذهبت الى غرفة الاستقبال لتنتظره. ولما دخل الغرفة برقت عيناه وابتسم ثم قال:

«عندي شيء لك.»

اخذت الرزمة الصغيرة منه وراح يراقبها وهي تفتحها وتقول:

«هدية اخرى؟ ولكن يا هارفورد لماذا؟»

ولما فتحت الزجاجة وجدتها زجاجة عطر ثمينة وكان عطراً مشهوراً غالي الثمن. فدمعت عيناها قالت وهي تحاول استعادة توازنها:

«انا شديدة التأثر يا هارفورد. كيف؟»

«طلبت أغلى عطر في المحل فأعطوني هذا الصنف. فهل اعجبك؟»

«كيف لا يروق لي وأنا أدرى بقيمته. وسوف استعمله عندما أبدل ملابسي للعشاء.»

هز رأسه راضياً ثم قال:«أنا اشتريت لنفسي عدداً من الملابس الجديدة فمرآتي قد ملت من عكس صورة ذلك الاستاذ الجامعي غير المهندم.»

ضحكا معاً. وقال:«إنك لطيفة يا ماريتا، وأنت كل ما...»

هز رأسه وقرر عدم متابعة الكلام وكأنه يلوم نفسه.

* * *

كانت ماريتا ترتدي وقت العشاء ثوباً مفتوح الرقبة. وتضع بشال رايان واستعملت عطر هارفورد. أما هارفورد فقد أبدل ملابسه أيضاً. ولدى دخوله شهقت دهشة فقد اختفى مظهر البروفيسور المهمل. وبدا كأنه يساير العصر. ومع تغيير ملابسه تغيرت كذلك

تصرفاته فأصبح أقل تحفظاً. وأكثر وعياً للأحداث التي تحيط به بدلاً من حبس نفسه في عالم خاص به.

قالت له ماريتا وهي معجبة بشكله:«إنك رائع.»

«إنني سعيد بذلك.»

قالت وهي تشير الى معصمها وعنقها وتحت اذنيها:«لقد استعملت عطرك ورائحته رائعة جداً.»

ثم سمعا صوت سيارة أمام البيت.

فنظر هارفورد اليها، ولاحظت انه شذب لحيته، رفع يدها وقال:«هل تسمحين لي؟»

انحنى على عنقها وأخذ يستنشق عبير العطر فأخذت ماريتا تقارن بين رقته وحنانه وخشونة ابنه.

ثم فتح الباب. ولكن هارفورد لم يبال فقد لثم رقبتها بخفة. وشعرت ماريتا بالاحراج. ثم أخذ الابن ينظر اليهما بينما كان الأب يلمس رقبتها. فشعرت بنظراته اللافحة.

همست ماريتا قائلة في اضطراب:«هارفورد.»

اتسعت عينا رايان دهشة ثم ضاقتا لما رأى ملابس والده التي لا يصدقها عقل.

قال والده وهو يبتسم:«هل تعجبك ملابسي الجديدة، انفقت في سبيلها مالاً كثيراً.»

«الى حد ما، السيدة لا تتمتع الآن وقد نقصت عشر سنوات من عمرك. فاستمر في حيلك حتى تجعلها تظن انك أكبر منها بثمانية عشر عاماً وبانك في الثانية والاربعين بدلاً من الثانية والخمسين.

«انني اقدر تمنياتك لي بالرغم من التوائها.»

فقالت ماريتا تلطف الجو:«لقد أهداني والدك عطراً يا رايان، وهو رائع، ولم أحصل على مثله من قبل.»

«انني أشم رائحته. فهو يلوث الجو.»

دخلت السيدة فيسك الغرفة تعلن تقديم العشاء. وكان الحديث أثناء العشاء يدور بين ماريتا ومضيفها. ولم يتكلم رايان إلا بعد تقديم القهوة. فقد قال لماريتا:

«جلبت الكاميرا التي تسببت في كسرها، فقد اصلحت.»

وتحسس جيوبه وأخرج منها ورقة ألقاها نحو ماريتا وقال:«هذه فاتورة الاصلاح.»

فعبس والده وقال:«ولماذا تعطيها إلى ماريتا؟»

«لأنها عندما كسرت الكاميرا قالت انها سوف تدفع ثمن اصلاحها وأنا أطالبها بوعدها.»

«ولكن لا يمكنك فعل هذا العمل، فهي ضيفتنا، ولا بد أنه كان حادثاً عفوياً بالرغم منها.»

«نعم ولكني حذرتها بأن الاصلاح يكلف كثيراً فأصرت على ذلك. ولذلك قدمت لها الفاتورة.»

ولما أخذت ماريتا الفاتورة لم تخف دهشتها للثمن المطلوب.

قال لها رايان: «لقد حذرتك، فهل تنقضين وعدك؟»

ملأ وجهها الخجل وقالت بمهانة:«سوف أدفع طالما اعطيتني الوقت لذلك.»

اخذ هارفورد الورقة من يدها وقال:«إنك لا تنتظر منها ان تجد كل هذا المبلغ ولن أسمح لها بدفعه. بل

سأقوم أنا بدفعه وإني مشمئز من تصرفك لأنك سببت لها الاحراج.»

ثم وقع شيكاً وقال:«اعتبر الأمر منتهياً.»

أخذ رايان الشيك ومزقه ثم القاه نحو ماريتا وخرج من الغرفة ولم يعتذر هارفورد لما بدا من ابنه.

وبعد برهة سمعت ماريتا هارفورد يقول:«إذا كان الجو معتدلاً غداً، سأذهب الى بيركلاند وهي تحدنا من الجنوب. وهي منطقة جرداء مفتوحة والباقي غابات زرعت أشجارها منذ مدة قصيرة. أريد ان اقصدها لتسجيل أغاني الطيور فهي غنية بحياة الطيور منذ. زمن طويل منيت نفسي بالذهاب اليها مع جهاز تسجيلي. فهل تأتين معي لأريك المنطقة؟»

شعرت ماريتا أنها لا بد ان تغتنم هذه الفرصة لرؤية الريف، مهما قال في ذلك ابنه. ولما قالت انها موافقة سر لذلك قبل وجنتها قائلاً:«لا بد ان أقوم ببعض أعمالي ففي انتظاري رزمة رسائل للجامعة لا بد من الرد عليها وسأرجع لتوي.»

تبعته ماريتاالى البهو. ولما أوصد باب المكتب وراءه، نظرت الى شعار العائلة المعلق فوق المدفأة وترجمت الأصل اللاتيني في ذهنها وتذكرت المعنى الذي ينطوي عليه.

دخلت غرفة الجلوس. ولكن الغرفة لم تكن خالية بل وجدت رايان فيها.

وقف قائلاً:«لا تهربي. لن امزقك كما مزقت الشيك ولو أني أود ذلك. اجلسي.»وأشار الى أحد المقاعد.

ثم أخذ ينظر اليها: «انك تكسبين الكثير من عائلة تيودور. فالمنظار والكاميرا والعطر من أبي ثم هذا الشال الذي يطوق عنقك.»

خلعت الشال وقذفته به «خذ الشال لا اريده.»

لكنها شعرت بالبرودة فودت ان تستعيده ثانية.

غير انه التقط الشال ووضعه على أحد المقاعد وقال: «لا فائدة منه لي الآن فلن اتمكن من إعطاء صديقتي أشياء مستعملة.»

زمت ماريتا شفتيها وهي تحاول إخفاء غضبها. ثم قال لها:«ما زلت أتساءل عن السبب الذي يكمن وراء دعوة والدي لك فهو لم يتورط قبل ذلك في علاقات غرامية سرية. ولكن في هذه الأيام قد يبدأ الشخص في سن متأخرة.» حاولت ماريتا جاهدة ان تتلافى وقوعها في شرك الغضب.

وأردف يقول: «ابي يعمل كل جهده ليبدو أصغر من سنه وكل ذلك لأجل فتاة تدعى ماريتا نيويل. اذ اتخذ لنفسه شكلاً جديداً وذلك بشراء ملابس جديدة ثم يتباهى بها كأحد طيوره المحبوبة وهو يستعرض ريشه لإغواء الأنثى.»

ثم وقف أمامها وقال:«وهل تعرفين ان في بعض انواع الطيور يستعرض الذكر أمام الأنثى وينفث ريشه ويفرد جناحيه.»

هبت ماريتا واقفة وقالت:«كف عن قسوتك على والدك، فهو رجل طيب وغير اناني.»

«هذه لعبة منك سمعتها من قبل وانت تقولين انه

لطيفة. وحنونة. وكريم. بل هو أبله ويعيش في الأوهام وقد فقد عقله.»

«بل أنت متحيز ضده لأنك تكرهه.»

صاح يقول: «إنني لا اكره والدي.»

ردت عليه تقول:«حسناً ولكنك متحيز ضده، لأن... لست أدري السبب ولكني ألاحظه في معاملاتك معه.»

«صدقيني إنني اعرف والدي تماماً وأعرف ما أقول.»

«ذلك لأنك قريب منه وأنا غريبة عنه فأراه كشخص منفصل عني.»

«وهل هذا صحيح، لا اظن، وذلك لأنك في عملك تعدين مجرد لا شيء إذا قورنت بهارفورد تيودور الرجل الذي يتبوأ القمة. ولا يهمني كيف تسمين العاطفة التي تشعرين بها نحوه في الحقيقة ليست إلا احترام البطولة.»

«انك مخطىء. إنك مخطىء جداً.»

«إذن أنتِ تقعين في حبه، في حب أبي وهو يصلح أن يكون اباً لك؟ انك محتاجة الى احد ليعيد لك عقلك.»

وأمسك بذراعها ولكنها نزعت نفسها منه وقالت:

«هل تفكر في درس آخر تلقيه علي؟ ذلك الدرس الذي هددتني به اذا لم ادع والدك لشأنه. لن اعطيك هذه الفرصة، ولن تقترب مني لتنال مأربك.»

قال لها:«لا تكوني واثقة من ذلك، يا فتاتي مع اني ابتعد عنك، فقد نفد صبري. ويمكنني ان أهشمك

وألطخ سمعتك وفي هذه الحالة سوف يشمئز أبي منك ولن يرغب فيك بعد ذلك.»

«انك كريه ولا تحتمل.»

ثم قال لها:«انت تعرفين أنني رجل بترول خشن فماذا تنتظرين مني؟»

وبذلك تغلب عليها ففرت هاربة من الغرفة.

www.elromancia.com

الفصل السابع

رن جرس الهاتف بينما كانت ماريتا ترتدي ثيابها. ولما نزلت لتناول فطورها رأت هارفورد جالساً في مقعده. فقال لها:«لسوء الحظ يا ماريتا جاءتني مكالمة هامة من وكيلي في الجامعة، يبدو ان أحد كبار رجال التعليم في الحكومة أعلن انه سوف يزور الكلية اليوم وبما انه من كبار رجال الدولة لن يمكنني رفض طلبه.»

ابتسمت وقالت وهي تداري خيبة أملها:«لن أخرج معك اليوم اذاً ربما في وقت آخر.»

نظر هارفورد الى النافذة فرأى السماء صافية فقال:«الفرص مهيأة للتسجيل، ومن المؤسف ان نترك هذا المشروع. فإذا أقنعت رايان ان يقوم بهذا التسجيل لأجلي، هل تذهبين معه؟»

تخرج مع رايان؟ بعد عراكها القوي ليلة أمس؟ سألت هارفورد:«متى يجب الذهاب؟»

«أشك في قدرته على قضاء كل الصباح هناك. فإذا وافق على الفكرة أظن أنه يختار بعد الظهر.»

هزت كتفيها وهي تفكر:إذا كان رايان ذاهباً الى هناك فلم لا تذهب معه؟ على الاقل يمكنها رؤية

الريف.قالت:«سوف أذهب معه.»

تركها هارفورد كي يبلغ رايان بالفكرة. ولما فرغت من طعامها رجع هارفورد وهو يقول وقد بدا عليه الاحراج:«قبل رايان الذهاب. لكن يفضل الذهاب بمفرده. لكنه سوف يفكر في الأمر ويخبرك برأيه.»

تقدم هارفورد نحوها ووضع يده على شعرها وقال:«آسف لتصرفه يا ماريتا.»

امسك هارفورد خصلة من شعرها وراح يتأملها ويقول:«إن لك سحراً، يا عزيزتي، فيمكنك التأثير عليه كي يصحبك معه.»

ثم أدار وجهها إليه، وقال:«يا فتاتي الجميلة، سأفتقدك اليوم، ولكنني سأهرع إليك في المساء لتبادل أطراف الحديث.»

وحين دخل رايان. خرج هارفورد وابتسم الى ماريتا ورفع يده إليها مودعاً.

انتظرت ماريتا ان تسمع موعظة من رايان ولكنه لم يفعل، بل أخذ مكانه الى المائدة ولم يتكلم إلا بعد ان ظهرت السيدة فيسك حاملة الطعام، فشكرها بلطف. ولما ذهبت ساد الصمت ثانية.

أصبح الموقف لا يحتمل، وأرادت ماريتا معرفة رأيه فقالت له: «رايان؟»

رد وعيناه لا تفارقان الجريدة:«نعم؟»

«انت تعلم ما أردت ان اسألك عنه.»

طوى الجريدة ووضعها جانباً وشبك يديه على

المائدة وقال وهو يبتسم:«انا لا اعلم، اخبريني.»
كان يستمتع باهانتها ويحاول ان يجعلها تستعطفه كي يصحبها.
«هل انت... هل نحن؟»
انتظر ان تكمل كلامها، فداست على كرامتها وحاولت السؤال ثانية: «هل اذهب معك بعد الظهر الى الريف؟»
«ولماذا ؟»
قالت وقد نجح في ان يضعها في موضع الالحاح:
«أريد اغتنام الفرصة لأرى المنطقة قبل رحيلي.»
«وأمامك الحياة بطولها لتفعلي ذلك.»
نظر إليها فرأى الحيرة والدهشة في عينيها. ثم قال:«إذا كان الأمر قاصراً على رؤية الريف ففي امكاني ان أقوم بدور الدليل ولكن يجب الذهاب هذا الصباح، فاستعدي على الفور والا تركتك وذهبت.»
كان الجو دافئاً فارتدت ماريتا بنطلوناً خفيفاً وبلوزة رقيقة وقصيرة، فلما نظر اليها، ردت على نظرته بنظرة أقوى.
وضع رايان سلة الطعام في السيارة ثم قال هازئا:«الذكر عادة في دنيا الطيور يستعرض محاسنه وليس العكس، على كل حال فالذكر الذي ترغبين في جذبه ليس موجوداً الآن، انك تضيعين وقتك في ارتداء هذا الزي.»
«لعلمك انني لم ارتد زياً، فالجو حار والأصح انني خففت من الملابس.»

«إنك تدهشينني. فإذا خففت أكثر من ذلك تثيرين رغبتي وعندئذ تجابهين اثنين من آل تيودور بدلاً من واحد. ولا بد من اختيار واحد، فهل تختارين الأب الذي بالرغم من تقدمه في السن ما زال يمتلك الحيوية التي تجعله يسعد أي امرأة كما ان منزلته في دنيا التعليم عالية ومؤهلاته هائلة، كريم لا يهمه جمع المال. أما الابن فحيويته لا جدال حولها، ومؤهلاته توازي مؤهلات والده ووظيفته ذات مسؤولية، ولكن هناك ناحية فيه ذات خشونة وقسوة تجعل الفتاة البريئة الصغيرة تصعق من الخجل والإحراج.»
ثم غير موضوع حديثه وأصبح جاداً. فسرد عليها تاريخ المنطقة التي يسيرون فيها وقال:
«هذا هو شرق انغليا. يحدها البحر من الشمال والشرق والمستنقعات من الغرب، اما من الجنوب فتحدها غابات من أشجار البلوط.» بعد ذلك تركا الطريق وانعطفا الى مساحة مسطحة من الأرض على حافة أرض بور، ولم يجدا انساناً آخر هناك غيرهما، فقال رايان وهو يغادر السيارة:
«هذه الجهة أقل المناطق سكاناً في البلاد كلها. واسمها بيركلاند وقد رأى الوافدون القدماء أنها صالحة للزراعة بسبب جفاف تربتها وجفاف مناخها.»
ثم حمل رايان جهاز التسجيل المعلق على كتفه وحمل سلة الطعام في يده وسارا نحو الغابة صامتين. كما يبدو وكأنه يستاء لوجودها معها. وكانت تصرفاته

مؤدبة ولكنها باردة.
ولما وصلا الى قطعة خالية من الأشجار في الغابة، ألقى بسترته على الأرض وقال:«اجلسي عليها واتركي لي مكاناً بجانبك.»
وكانت السترة تسع اثنين ولكن لما جلسا تقاربت اكتافهما فودت ان يكون مزاجه أكثر اعتدالاً. وكانت ذراعه تلمس ذراعها فتجعلها تشعر بالوخز لأن هذا التلامس يجعلها تحس بالتجاوب معه.
ثم راح يعد الجهاز للعمل. رفع رأسه وقال وهو يتنصت:«هذا هو البلبل.»
«هل يغرد أثناء النهار؟»
«نعم كثيراً ما يغني أثناء النهار، ولن أسجل صوته فلا بد ان والدي قد فعل ذلك من زمن مضى.»
ثم استمع ثانية وقال:
«سأسجل صوت هذا الطائر. احياناً يغني وهو يحوم وغالباً عند طيرانه. ولولا انشغالي بالتسجيل كنت اشرت اليه حتى تتعرفي عليه فهو أزرق يميل الى اللون الرمادي وهو لون الذكر أثناء الصيف.»
«كيف أتتك كل هذه المعرفة عن الطيور؟»
«إني أهتم بها. فالكثير من معرفة أبي انتقل اليّ في غفلة منه.»
«إذا كانت هذه هواية متبادلة فلم لا تقرب بينكما بدلاً من التنافر كل الوقت؟»
كان هذا سؤالاً لا حق لها في طرحه فانها تثير به القلاقل.

رد بسرعة قائلاً:«لا شأن لك بالطريقة التي اتعامل بها مع والدي، فأنت لست فرداً من الأسرة بعد، وإذا كان الأمر بيدي فلن يحدث ذلك.»
أشار الى عصفور العرف الذهبي فحاولت ماريتا ان تراه ولكنها فشلت فقال بتهكم:
«أرى انه ليست لديك القدرة على مراقبة الطيور. وهذا يهدّ الاحلام التي بناها والدي حولك.»
«انه لا يدري ذلك فأنا أتظاهر أمامه بالمعرفة.»
فضحك وقال:«وهل تظنين يمكنك خداعه، انه خبير، والخبراء دائماً يميزون الذين يقولون الصدق.»
فملأ وجهها الخجل حين فكرت في المرات التي خدعت هارفورد فيها. ثم قالت:«يمكنني ان أميز الأنواع المختلفة من الطيور في الصور. ولكني اتردد عند رؤيتها في اماكنها الطبيعية، فإنها تتحرك بسرعة فائقة وأجد صعوبة في العثور عليها بالنظر.»
ضحك عالياً ثم هز كتفيه استخفافاً وقال:
«هذه مشكلتك ولكني لا أعرف كيف يمكنني ان أساعدك به. وإذا عرفت فلن أبوح لك، فأنت تورطت مع أبي في هواية الطيور ولأي غرض؟ لا أدري، ولكن يمكنني ان أخمن شيئاً.»
«هل يجب ان تكون قاسياً دائماً؟ لم لا تكون لطيفاً معي؟ انه يوم جميل وهو يعد إجازة لي.»
اذا كانت تظن ان هذه الكلمات الشاكية يمكنها ان تهزه فهي واهمة فقد أمرها بالسكوت وأدار جهاز التسجيل.

نظرت حولها في حيرة فتساءلت عما لفت نظره من الطيور أو سمع من غناء. ثم رأت طيراً يغوص في الفضاء يلف ويدور فارداً ذيله وريشه بني منقوش، يميزه منقاره الطويل المستقيم الذي يحفر به الارض.

سألها رايان:«هل رأيت الطير؟»

هزت له رأسها بالايجاب وقالت:

«شكراً لك. سأتذكره دائماً بمنقاره المميز.»

«اذن سوف تتباهين بما اضفته الى معلوماتك. ومما لا شك فيه ان أبي سوف يكافئك بهدية أخرى.»

ثم التفت إليها وقال بتهكم:«ربما كانت سيارة هذه المرة.»

«إذا فعل وقبلت هديته فماذا تفعل؟ هل تعاقبني كما عاقبتني من قبل. وتعطيني درساً آخر إذا لم أدع والدك وشأنه؟»

أزاح جهاز التسجيل بكل حرص واستدار إليها ففزعت لما رأت في عينيه من صلابة وبرودة. ثم همس يقول:«هل تتحدينني؟ وهل تطلبين مني ان أبرّ بوعدي؟ هذا ما توقعته، إني على استعداد ان أقبل هذا التحدي، لأنني واسع التجربة في عالم الاناث فأعرف معنى التشجيع عندما أراه.»

وبحركة سريعة ألقاها أرضاً، ثم استدار ورقد بجانبها ووضع يده على وسطها.

حاولت التخلص منه، ولكنه كان غافلاً عنها يحاول ان يملي إرادته عليها ويجبرها على الخضوع. فشعرت

ان قوة مقاومتها تنحسر ويحلّ محلها تجاوب عميق له. كانت كل حركة تقوم بها تلقائية وغريزية. وشعرت أنها في دنيا غريبة بين الحقيقة والخيال. الخيال يبين لها ان الرجل يكن لها الحب أما الحقيقة فتدل على أنه ينتقم من والده ومنها فراح يؤلمها ونجح في ان يعزز في قلبها الشوق اليه.

ثم رآها تبكي فقال لها:«كفي عن البكاء.»

لم ينطق بكلمة اعتذار أو طلب العفو منها، ولم تنتظر منه ذلك لأن له قلب من حجر، ثم جلست وأزاحت شعرها عن وجهها ومسحت دموعها. رأته يفتح سلة الطعام التي جهزتها السيدة فيسك ثم سمعها تقول:

«إني آسفة، لا يمكنني ان أقرب الطعام.»

هز كتفيه واستمر في إفراغ سلة الطعام، فرأت ان السيدة فيسك جهزت لهما السلطة في أطباق من الورق المقوى ووجد رايان لنفسه شوكة فأخذها وراح يأكل. وبعد برهة شعرت بالجوع وبفراغ معدتها وشجعتها رائحة طعام رايان فتناولت السلة بحثاً عن طعامها وأخذت تأكل منه.

سألها:«هل تشعرين بتحسن؟»

خفق قلبها لهذا التغير السريع في مزاجه وهزت رأسها ثم سألته:«هل فرغت من التسجيل.»

«نعم قمت بواجبي ويمكنني ان أرتاح.»

ثم رقد بجانبها، فتأثرت حواسها لقربه، وتجاوب قلبها معه من حسن حظها تركها في الوقت المناسب لأنها كانت ضعيفة تجاهه ومسلوبة الارادة.

فجأة جلس والتقط أحد الاحجار وأخذ يتفحصه وسمعها تقول:«هل هو ذو أهمية؟»
«ليست أهمية كبيرة.»ثم تناول حجراً آخر وقال:«هذا من حجر الصوان. ويكثر في هذه المنطقة.»«جعلت مني مدرساً لهذة المادة وهو ما أقسمت ألا أفعله، فأنا لا أطيق النظريات. بل أفضل ان أطبق العمل على نظرياتي.»
يبدو ان هناك معنى مستتراً وراء هذا القول. فإن حديث رايان ينطوي دائماً على معاني مستترة ولكنها كفت عن محاولة حلها. ثم قالت له:«استمر من فضلك، فالجيولوجيا تبهرني دائماً من زاوية الهواية فقط.»
«أعتقد أنني جعلتك تهتمين بأنواع الصخور أكثر من اهتمام أبي بطيوره.»
احمر وجهها خجلاً فضحك لاحراجها.
«والآن ماذا أقول لك؟ كانت هناك كمية من الصخور المكسورة قطعا بقيت بعد ذوبان ثلج العصر الجليدي، ومعظمها كانت صخوراً محلية ولكن بعض الصخور جاءت من أوسلو عاصمة النروج واكتشفت على ساحل شرق انغليا، سوف أعيرك كتباً في هذا الموضوع حتى يمكنك ان تعرفي شيئاً عنها.»
فقالت:«على الاقل عندما ألتقط أحد الصخور لدراسته أكون متأكدة انه لن يطير قبل ان اتمكن من ذلك.»
أطلق ضحكة عالية ثم وقف ومدّ إليها يده وقال:
«تعالي آخذك الى الماضي السحيق.»

ثم جذبها فقامت وأخذت تنظف ملابسها فأمسك ذقنها ونظر في ملامحها وقال:«هل جفت الدموع؟»
هزت رأسها بالايجاب. فقال:«حسناً. سآخذك الآن الى مكان يسمى غريمز غريفر.»
سارا في الطريق الذي يوصلهما الى السيارة. وكان رايان ينحني من وقت الى آخر ليلتقط صخوراً من حجر الصوان، ولما وصلا الى هناك بعد فترة قصيرة، اخبرها رايان ان هذه الجهة مكونة من حجر الصوان.
تركا السيارة وسارا في طريق واضح المعالم وقال لها رايان ان الحفر الموجودة بكثرة في هذه المنطقة هي أفواه لمناجم حجر الصوان الموجودة على عمق أربعين قدماً. وقد انهار سقف أحد هذه المناجم فوجدوا المعاول ما زالت هناك بعد ان تركها رجال المناجم من آلاف السنين ويمكن استعمالها الآن.
أمسك رايان يدها بشدة فنظرت ماريتا إليه وهي ترتجف واستطرد: «وجدت قرون الوعل الأحمر في كل المناجم، وهذا يعني ان إنسان ما قبل التاريخ استعملها كمعاول لاستخراج حجر الصوان، وظل أحد المناجم مفتوحاً للجمهور. فهل عندك الشجاعة لكي تنزلي فيه؟ اني ارى انه جدير بالزيارة.»
كان الغطاء المستدير للمنجم قد نزع، نظر الى داخله فوجدا سلماً معدنياً يصل رأساً الى أرض المنجم. فقال لها رايان:
«سأنزل الى المنجم ماسكاً طرفي السلم.» وأشار

لماريتا بالنزول. وكان المنجم مظلماً ولكنها تغلبت على مخاوفها واستدارت ونزلت، وأخذا ينظران الى المنظر الرائع.

طوقت يد رايان وسط ماريتا فارتكزت عليه. ولم تأبه لتأويله لهذه الخطوة التي اعتبرتها نوعاً من الخضوع الصامت.

سمعا أصوات أطفال تصل اليهما من فوق المنجم، ووقع اقدامهم تدق السطح فابتعدا، ثم رأيا وجوه الأطفال تطل عليهما من قمة المنجم.

قبل انتهاء السلم رأت رايان ينتظرها فاتحاً ذراعيه لها، ولكن قدمها زلت فجاهدت حتى استعادت توازنها، وقبضت على جانبي السلم ثانية، شعرت بالألم ينبض في ساقها. وأخيراً ساعدها رايان لتصل إليه. ثم جثا ليرى ساق ماريتا ويمسح الجرح بمنديله وهو يقول:«للأسف، فالسيارة بعيدة.»

«يمكنني الذهاب إليها بسهولة. فليس الألم كبيراً.»

لكن بعد برهة، وبالرغم من التفاف ذراعه حول وسطها أخذت تعرج، وفجأة وبدون أي كلمة، مال عليها وحملها بين ذراعيه الى السيارة. ولما اقتربا من المنزل قال لها:«سأسافر صباح الغد الى لندن في رحلة سريعة، وعند رجوعي في المساء هل تتناولين العشاء معي؟ ما هو ردك يا حلوة؟»

كلمة التدليل جعلت قلبها يخفق بقوة. فهمست تقول: «إذا أردت ذلك.»

«نعم أريد ذلك. أريد عينين رماديتين تنظران

الى عينيّ في ضوء الشموع وحاجبين مقوسين يتحديانني وشفتين كاملتي التكوين يغريانني... هل يكفي هذا الشعور كي تعرفي كم اريدك؟»

ملأ وجهها الخجل للمعاني المختفية وراء قوله... إن الحب لا يبدو جزءاً من حياة هذا الرجل فهو لا يحتاج إليه ويسخر منه، فمن الجنون ان تترك نفسها تقع في فخه. ولكنها وقعت بالفعل ولا يمكنها التراجع.

عندما وصلا الى المنزل حملها من السيارة، فقالت له:«أنزلني يا رايان. لئلا يرانا احد. أنا قادرة على المشي فوالدك...»

لكنه صمم على حملها وابتسم لها بحنان قال لها وهو يقترب من الباب:«هل هذا وعد منك؟ بأننا سوف نتناول العشاء معاً مساء الغد.»

هزت رأسها موافقة. ثم دخلا البهو فاستقبلهما هارفورد غاضباً ولكنه لم يتكلم ثم رأى ساقها الجريحة فبان عليه الاهتمام وقال:

«ماذا حدث يا رايان؟ وكيف تركتها تؤذي ساقها؟ طلبت منك بعض التسجيلات وليس ان تذهبا الى مكان خطر! انزلها لأرى بنفسي.»

«أخذتها الى غريمز غريفز فهل تسمي ذلك خطراً؟ لقد زلت قدمها عن السلم.»

قالت ماريتا وهي تتململ بين ذراعي رايان:«إنه امر بسيط يا هارفورد . سأغسل الجرح وأضمده.»

«لا، إني أصر على دعوة السيدة فيسك لتساعدك. خذها الى الدور الاعلى يا رايان إلا اذا فضلت ان أحملك

بنفسي يا عزيزتي.»
«تحملها أنت يا أبي؟»
وحرص رايان ان يجعل أباه يدرك تقدمه في السن والخطوة التي تنجم عن حمله لماريتا والمشي بها، فما باله بصعود السلم بها.
وضع رايان ماريتا على السرير ومال عليها ثم قال هامساً:
«إذا طلبت منك ان تفسحي لي لأرقد بجانبك هل ترفضين كما رفضت من قبل عندما رقدت في سريري ودعوتك ان ترقدي بجانبي؟»
سمعا صوت السيدة فيسك بالباب تقول:
«آنسة نيويل.»
«استقام رايان وهمس:«سوف أعيد عليك هذا السؤال في وقت يسمح بذلك.»
وغادر الغرفة.
كان الحديث أثناء العشاء ينصب على اشتراك الأب وابنه في المناقشة عن تسجيل غناء الطيور وكانت معرفة رايان عن حياة الطيور توازي معرفة والده بها. ولما فرغ العشاء تركهما رايان بعد ان ابتسم لماريتا وردت ابتسامته بدون تحفظ.
ثم أخذت تسأل هارفورد عن يومه في الجامعة، فرد يقول:«لم نحرز نجاحاً كبيراً. فالمناقشات كانت عن المال. وعن القدر القليل الذي سمحوا لنا به بدلاً من المبلغ الكافي الذي طلبناه.»
ثم كف عن الكلام في هذا الموضوع ونظر الى

وجهها بحنان وقال:«إنني سعيد لأنك مرتدية ثوباً أصفر كالشمس وهو يناسبك دائماً.»
ثم قال لها:«تعالي معي إلى الحديقة يا ماريتا للنزهة.»
أمسك بيدها وسارا فوق العشب الأخضر الذي كساه الندى ورأيا البستاني ما زال يعمل بإخلاص.
وفي حديقة الورود العبقة برائحة الزهور والمشرقة بألوانها طلب هارفورد يد ماريتا قائلاً:
«يشرفني ان تكونين زوجة لي يا عزيزتي. هل تتزوجينني حتى تكوني بجانبي دائماً عندما أحتاج اليك سأعطيك كل شيء... منزلاً جميلاً وأشياء قيمة وفوق ذلك... حبي؟»
استعادت هذه اللحظات وهي في غرفتهما تنظر الى السماء التي زينتها النجوم، فشعرت بألم غريب.
وكانت قد أرجأت الرد قائلة له:
«أعطني وقتاً، فنحن لا نعرف عن بعضنا البعض الا القليل.»
تمنت ان يكون الابن هو الذي يعلن عن حبه لها، ويطلب منها ان تكون بجانبه طول حياته.
كان هارفورد قد ردّ عليها بقوله:
«أنا اعرف عنك اكثر مما تظنين. الطريقة التي تبتسمين بها وتعبسين بها، وإذا أغضبك شيء أو الطريقة التي نتشارك بها في كل شيء. ونضحك لذلك، والطريقة التي سوف تقفين بها بجانبي لتكوني عروساً لي. إني اراك في أحلامي وأعيش معك

خلالها... وراء الأحلام... تكمن الحقيقة...» رنت هذه الكلمات في ذهنها ولكن لم يمكنها تفسير معناها.

وافق هارفورد ان يعطيها وقتاً لتفكر، وكان متأكداً انه سوف يجعلها تشعر بحنانه...لا يهم فارق السن بينهما ما زال قوياً، وسوف يعيشان سنين طويلة وينجبان أطفالاً.

شعرت بالشفقة نحوه، فهو رجل طيب وتمنت لو لم يكن له ابن احبته بقوة... لم تكن تعرف ان في مقدورها ان تحب بهذه القوة.

أخذت تفكر في كل ما قاله رايان حول عدم الاكتراث للحب فقد اقسم ان هذا هو دستور حياته. وأنه يحسن معاملة النساء. وحاولت ان تكرهه بدون فائدة... لم تنكر الحب الذي تشعر به نحوه. فهو موجود وسوف يستمر ولن يخبو ابداً.

استيقظت ماريتا في اليوم التالي لتراه جالساً بجوارها، فظنت انها تحلم ولكنه ابتسم لها، وأرادت ان تخبره عن طلب والده يدها. لكنها فكرت... إن هذه الدقائق الغالية لا يجب إفسادها. فهي لن تتزوج الأب بينما تحب الأبن. وسمعته يقول:

«إننا على موعد هذه الليلة. كوني جاهزة عند رجوعي وسأعمل على وصولي مسرعاً.»

«خذ حذرك.»

بدا اليوم طويلاً. ففي الصباح اعتذر هارفورد لتركها بمفردها وراح يعمل فتسللت ماريتا الى غرفة رايان لأنها تأكدت انه لن يرجع فجأة. وأخذت تفحص

المذكرات فرأتها مكتوبة بعناية بالغة، وأسلوبها سلس، وقارنتها بأوراق والده التي كانت تجدها في المعمل، فوجدت ان تسلسل أفكارها واحد، فأسفت لذلك الخلاف الذي كان يفصلهما.

وبعد الظهر عند وجودها مع هارفورد في المخبأ جنباً الى جنب كان عطوفاً متفاهماً... وكانت مشكلة التصوير، كما قال لها، هي ان تكون قريبة من الطيور ولكن ليس بالقرب الذي يجعلها تفزع. وتوجد طريقة أخرى هي استعمال عدسة مقربة وهي غالية الثمن ولكن عندما تصبح ماريتا أكثر تدريباً، سوف يشتري لها واحدة مثل عدسته.

اختارت لحظة لتخبره فيها عندما صور طيراً. وكان سعيداً لأنه صوره وهو وضع فريد أثناء طيرانه.

كان مشغولاً بإعداد الكاميرا للصورة التالية عندما قالت له:«أرجو الا تستاء يا هارفورد لأني سوف أتناول العشاء هذه الليلة في الخارج، فقد دعاني رايان للعشاء.»ثم التفتت إليه ورأت تعبيرات وجهه الجامدة.

«وهل تظنين انه من العقل ان تقبلي هذه الدعوة؟»

«من العقل؟»

«لقد حذرتك من ابني يا ماريتا لاستهتاره في معاملة النساء.»

«ولكنه دعاني لتناول العشاء فقط. وأتمنى الا تستاء لذلك.»

«انه ولدي وإني أثق فيه... في بعض الأشياء فقط.»

«أنا آسفة.»

لكنه لم يرد، فعرفت ماريتا أنه لم يتقبل الاعتذار. كانت ماريتا جاهزة عند رجوع رايان وعرفت أنه رجع مسرعاً ليحافظ على موعده معها، فهل تستمد الأمل من هذه الشواهد؟ ولكن أي أمل؟ هل هو الأمل في أنه سوف يبادلها عواطفها؟ وهل هي غريرة الى هذا الحد؟ كفاها كل هذه التحذيرات من والده... بل ومن رايان نفسه... فلا قيمة للزواج أو الاطفال في مستقبله لا روابط من الاطفال والبيت ولا عوائق أمام حريته.

ارتدت ثوباً أحمر نارياً يكشف عنقها الأبيض ويحدد خصرها النحيل ودثرت كتفيها بالشال الذي أهداه لها رايان...

ظهر الاعجاب في عيني رايان وقال لها:

«تبدين جذابة ورقيقة. وهما صفتان بالغتا الخطورة إذا اجتمعتا معاً فأنا لا أقاوم الأولى أما الثانية فأعتبرها منذ صباي تحدياً يجعلني أود البطش بها. فحذار يا ماريتا.»

تناولا العشاء في مطعم محلي، رأت على جدرانه صوراً قديمة... وكان عبق الماضي يمتزج مع الحاضر. كان رايان يرتدي سترة بنية وقميصا قاتماً ويلمع شعره في الضوء الخافت.

رجعت الى الواقع ورايان يسألها:«هل تحلمين بالمستقبل؟»

«المستقبل؟» إنها بالرغم من ان هارفورد طلب الزواج

منها تجهل مصيرها فردت تقول:

«لا. إني أفكر في الماضي.»

«لا يمكن ان أجاريك في الماضي، لأني رجل عصري، فأنا صورة مصغرة لانسان هذا العصر، في تصرفاته.»

«واخلاقياته؟»

«وأخلاقياته...»

ماتت الابتسامة على شفتيها واستطردت تقول:

«انك جيولوجي، ومع ذلك تساير هذا العصر. وهذا تعارض لا يمكن الجمع بينهما.»

«أنا أرجع إلى الوراء، في عملي، مئات بل آلاف السنين وفي راحتي ابقى في الحاضر وأتمتع بكل دقيقة منه.»

تكلما بهدوء وكان لطف رايان قد أحاله الي إنسان لم تعرفه من قبل فأين ذهب بروده وأين اختفت قسوته؟ ثم قال:

«لا بد ان أريك هذه المنطقة. هل شاهدت نورفولك؟ نحن نمتلك زورقاً هناك وبه محرك وغرفتان وإمكانيات لطهو الطعام وحمام صغير وكل ما يحتاج إليه المرء.»

«وهل تمضي إجازتك هناك؟»

«أحياناً أمضي هناك بضعة أيام. ولا أذهب مع والدي ابداً. إن ابي يستخدمه في نشاطه لمراقبة الطيور والمنطقة وهو يسعد بذلك. أما أنا فأقصد المكان لأبعد عن كل شيء. وسوف أصحبك الى هناك

في يوم ما.»

سألت نفسها متى؟ لا أمل لها في شيء، فأيامها في مبنى الأفق معدودة. قريباً سوف يطلب منها هارفورد رداً على طلبه الزواج منها وسوف ترد بالرفض ولذلك يجب ان تغادر البيت. وهذا معناه ألا ترى رايان ثانية.

وحاولت ان تجد الشجاعة لتخبره بطلب هارفورد ان تكون زوجة له، ولكن الكلمات كانت تتحشرج في حلقها.

بعد تناول القهوة قال لها رايان: «المطعم له حديقة خلفية مليئة بالورود والأشجار. تعالي معي لنراها في ضوء القمر.»

وجدا في الحديقة نافورة فسارا حولها وأحكمت ماريتا الشال حول صدرها لتتفادى رذاذ النافورة على جلدها.

وجدت في الخميلة مقعداً خشبياً وكأنه صنع للمحبين. فقادها رايان إليه ولما نظرت صوبه وجدت ضوء القمر قد أحاله الى هيئة الأشباح، وكأنه أصبح جزءاً من الماضي لا يمكن بلوغه... لقد أصبح شفافاً... نظر إلى وجهها وابتسم فردت ابتسامته... إن الشبح لا يدفىء قلبها بهذا القدر. فالرجل له جسم قوي وعضلاته حديدية تشعر بها تحت سترته.

التفت إليها وجذبها نحوه ومد لها ذراعه لتسند رأسها عليه، وأخذ يتحسسها بيده... لا فائدة من مقاومته ولا قوة لها على ذلك.

جذب طرفي الشال عن عنقها وأخذ يهمس:

«قولي إنك تحبينني. اعترفي بأنك وقعت في حبي وإلا...»

وأخذ يجذب الشال حتى انها شعرت بالخوف، ولكنه خوف استعذبته وكانت تحت رحمته ومع ذلك تجاوبت مع كلامه.

«اني أحبك يا رايان... أحبك.»

رأت في عينيه بريق الانتصار. فقد فاز ولكن ما هو هذا الانتصار؟

حين عادا كان هارفورد في البهو وكانت يداهما متشابكة عندما وقفا أمامه، وفكرت ماريتا. لو رجع التاريخ قرنين إلى الوراء فحتماً كان أحدهما سيلقي بقفازه تحدياً للمبارزة، ولكن الرجلين كانا أباً وابنه فشعرت بالخوف لهذا الخاطر الذي يقودهما الى المبارزة حتى الموت...

ثم عادت الى الحاضر وعرفت ان هذه المواجهة جعلت الجو يتوتر بينهما فلا بد ان تهرب.

التفتت إلى رايان وقالت:«شكراً يا رايان على العشاء الرائع ولكل شيء... ذهبنا الى مكان رائع يا هارفورد.»

ابتسم لها. فتساءلت عما رآه في خديها الملتهبتين.

ثم قالت لرايان الذي كان ما زال ممسكاً بيدها:

«لا بد ان أصعد إلى غرفتي يا رايان.»

رفع يدها وطبع قبلة على معصمها. ولكنها لاحظت انه يمثل هذا الفصل ولكن عندما نظر إليها رأت

الدفء في عينيه.

لما وصلت إلى غرفتها نظرت من النافذة وتساءلت ماذا يحدث في غرفة الاستقبال؟ ولماذا لم تجد الشجاعة لتخبر رايان بطلب والده لها؟ هل يخبره والده الآن؟ وبعد عناقهما في حديقة المطعم ماذا يظن رايان بها بعد ان يعرف ان والده يريد الزواج منها؟

أخذت تتجول في غرفتها بقلق، ثم سرحت شعرها وجددت زينتها وعقدت الشال على كتفيها ، ثم نزلت إليهما. وقبل ان تصل إلى نهاية السلم سمعت الجدال القوي، فشحب وجهها وضعفت ساقاها فأمسكت بدرابزين السلم لتتمكن من النزول.

كان صوتهما عالياً يمكنها من سماع كل كلمة منه:

«طلبت الزواج منها فطلبت مهلة تفكر فيها لكنها لم ترفض.»

ثم انخفض صوت هارفورد إلى الهمس ثم ارتفع ثانية.

«فعلت ذلك متعمداً فجعلتها تقع في حبك لتتحداني وتتفوق عليّ... استخدمت لطفك وكل سلاح لديك ولك أسلحة كثيرة كثيرة جداً لتنتزعها مني وتتركني أعزل... هذه خسة ونزالة.»

رد الابن بصوت قاس:«إنك على حق. ولن انكر شيئاً وأعترف أني فعلت ذلك عن عمد، فقد عملت كل ما في وسعي لأجعلها تحبني. كنت أرى ما يعتريك من مشاعر ولاحظت ذلك من أول الأمر، وكان عليّ ان

أتلافى الكارثة التي سوف تقع حتماً إذا تزوجتها، فأنت في دنيا الأحلام... دنياك وحدك... وكان عليّ ان اجعلك ترجع الى عقلك وتراها كما هي لا كما تريد ان تراها. وأجعلك ترى غرابة تفكيرك وتفطن إلى المصيبة التي سوف تواجهها إذا استمر طيشك. وقد نجحت في مسعاي. فالليلة باحت لي بحبها وذلك بالقول والفعل. وقد انتصرت بينما ذقت الهزيمة يا أبي.ولا شيء يمكنه تغيير الموقف فامتثل للحقيقة وعش في وحدتك بسلام وتعقل.»

«لا!»

ثم التفتا إلى الباب وكأن شبحاً قد دخل عليهما... فوجه ماريتا كان شاحباً. كانت كلمات رايان تطوف برأسها وترن فيه كأنها في كهف...« لقد فعلت كل ما في وسعي لأجعلها تحبني وإني اعترف أني فعلت ذلك عن عمد... الليلة بالقول والفعل واعترفت أنها قد أحبتني...»

قال لها هارفورد وهو يقترب منها:«ماريتا.»

ردت هامسة مثل النسيم: «هارفورد. هل ما زلت تريد الزواج بي؟»

بدا عليه الفرح وقال:«نعم ياعزيزتي.»

لكن رايان قال:«قلت انك تحبينني لقد اعترفت لي بذلك عندما تحديتك.»

«نعم إني اعترف بذلك. ولكن كان هذا تحت التهديد والاكراه.»لا أحد يدري كم تكبدت من ألم وهي ترد عليه، ثم جمعت طرفي الشال حول عنقها كما فعل

في الحديقة وقالت له:«هل تذكر هذا الشال؟»
أدارت وجهها، فقد وجدت في وجهه الازدراء والكره وقالت لنفسها بيأس: نعم، الكره.
ثم اضافت:«هارفورد هل ما زلت تريدني زوجة لك؟»
«يا فتاتي الحلوة. هل تدركين ما تقولين؟ إنك شاحبة...»
«سوف اتزوجك يا هارفورد.»
كان صوتها عديم النبرات وعيناها مفتوحتين وكأنها تمشي وهي نائمة.
أخذها بين ذراعيه في حنان وكأنها شيء ثمين قابل للكسر... ماذا قال رايان عن ذلك منذ ساعات... بل منذ سنين مضت؟ فهي تثيره وتجعله يهشم كل شيء يراه رقيقاً قابلاً للكسر. وقد حطمها ورفس الحطام بقدمه.
وبينما كان هارفورد يعانقها انحسر الشال عن كتفيها وسقط.
اجتاز رايان الغرفة والتقطه ووضعه في جيبه ورأت ماريتا ما فعل بشالها وهو الهدية الوحيدة التي تلقتها منه! لن يكون لها بعد ذلك شيء تذكره؟
كانت النظرة التي ألقاها عليها قد جعلتها تجفل وتغمض عينيها ثم تمايلت ولكن يدا هارفورد امسكتا بها. وسمعت قدمي رايان تتجهان نحو الباب الذي أوصده بشدة وراءه.

الفصل الثامن

في اليوم التالي اشترى هارفورد لماريتا خاتم الزواج المصنوع من الماس والزمرد. وأمضيا فترة بعد الظهر في المخبأ، أما المساء فقد قضياه في سماع الموسيقى.
قالت لنفسها: هكذا سيكون أسلوب حياتها من الآن ويجب ان تتعود على ذلك. ولكنه سيكون صعبا عليها... فهي فتاة هادئة الطبع.
أصر هارفورد ان تكتب الى المسؤولين في التعليم وتبلغهم باستقالتها. ولم يريا رايان طوال اليوم، لكن ماريتا عرفت انه لم يغادر المنزل اذ سمعته يحادث المشرفة على المطبخ. وقال لها هارفورد إنه دعي لالقاء محاضرة في مؤتمر لمراقبة الطيور في أواخر الأسبوع... أضاف وهو يقبل خدها:
«هذا معناه أني سأتغيب لمدة يومين.»
لكن المشكلة حلت بسهولة، فقد تلقت مكالمة هاتفية من والدتها تقول إنها سوف تحضر. ووجدت ماريتا هذه الفرصة لتخبر والدتها بخطبتها لهارفورد فقالت لها:«إن لدي خبراً سارا لقد خطبت، وسوف أتزوج يا

www.elromancia.com

والدتي.»

«ومن هو ذلك الرجل السعيد يا حبيبتي؟ هل هو ابن البروفيسور تيودور؟»

حبست ماريتا أنفاسها حتى تتمكن من الكلام:

«لا لا، طبعاً لا... فهو ذلك الصنف الذي لا يتزوج ابداً. إنه هارفورد نفسه.»

وهنا سمعت صوتاً من الناحية الأخرى من الخط ثم أضافت: «طلب الزواج مني ووافقت. هل انت مسرورة لذلك؟»

«لكن يا مارينا إنه يكبرك بسنوات كثيرة. هل تتصرفين بحكمة؟»

اغاظ ماريتا هذا الترحيب الفاتر لذلك النبأ. فقالت:«من غير شك أتصرف بحكمة. أنا راشدة وأعرف ما اريد. اليس كذلك؟»

«لا تغضبي يا عزيزتي ماريتا. إذا كان في ذلك سعادتك، فأنا سعيدة به. والآن يجب ان ألبي دعوة البروفيسور، فإذا كان سيصبح زوجاً لابنتي...»

وسكتت لأن هذه الكلمات جعلتها تندهش وهي تتفوه بها ثم جاء هارفورد والتقط السماعة من ماريتا وقال:

«سيدة نيويل. هل سمعت الخبر من ابنتك؟ جعلتني رجلاً سعيداً جداً وسوف نسعد بحضورك هنا.»

ورتبوا لوصول جوزفين في اليوم التالي لقضاء إجازتها في مبنى الأفق، ولدهشة ماريتا ذهب رايان الى المحطة لاستقبالها. وسمعته يتكلم مع والده

ولكنها لم تعرف التفاصيل. وعندما نزلت لاستقبال والدتها أصبحت وجهاً لوجه مع رايان، فرأت في عينيه برودا، ولما شكرته جوزفين لاستقباله ابتسم لها. ثم لما استدار وواجه ماريتا اختفت الابتسامة عن وجهه.

قالت جوزفين لهارفورد: «أمكن لرايان التعرف علي بسهولة وقال لي إنني أشبه ابنتي حتى يظن أننا أختان. هذا تكريم لامرأة في سني!»

ضحك هارفورد وقال هو يتأملها:«نعم... إنك مثل ماريتا، ولكنك أكثر منها جلالاً وصفاء.»

استأذن رايان بأدب وذهب.

أخذت ماريتا والدتها إلى غرفة الضيوف، وجلست معها على السرير وبينما كانت جوزفين ترتب اغراضها أخذت ماريتا تقلب الخاتم في أصبعها وهي لا تدري ماذا تقول.

بعد فترة صمت حرجة قالت جوزفين:

«حسناً يا حبيبتي، سوف تصبحين قريباً امرأة متزوجة. فما هو شعورك؟»

ودت ماريتا ان تطوّق والدتها بذراعيها وتبكي من قلبها. كانت تفعل ذلك احياناً وهي طفلة. فبين ذراعي والدتها تجد السلوى وحل المشاكل، فلم لا تفعل هذا الآن. وتأكدت اخيراً ان الحقيقة تكمن وراء الأحلام، وكان حلمها هو حبها لرايان واعترافها له بذلك الحب.

كررت جوزفين سؤالها:«كيف تشعرين يا حبيبتي؟»

رفعت ماريتا وجهها ورأتها والدتها وهي تحز على شفتيها ولمست الحيرة في عينيها الرماديتين فجلست بجانبها وامسكت يديها بين كفيها وقالت:

«أريد سعادتك فقط ويجب ان تتأكدي ان ما تفعلينه هو الصواب. من العار أن تخذلي رجلاً فاضلاً كالبروفيسور. يبدو أنه يحبك ومستعد أن يعمل ما يرضيك ويسعدك. إذا لم تتزوجيه وبعدت عنه سوف يتألم وتتحطم حياته، فهو ليس شاباً يتحمل مثل هذه الصدمات.»

وبعد فترة طويلة ردت ماريتا تقول:«إني أعجب به.»

تأملت جوزفين ابنتها طويلاً ثم قامت لتستكمل عملها.

نزل رايان الى العشاء وتحدث مع والده ومع جوزفين، ولكنه تجاهل ماريتا. فجلست صامتة بالرغم من ان هارفورد عمل ما في وسعه ليشركها في الحديث، وكانت جوزفين تضحك معه أما ماريتا فابتسمت ولكن رايان تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً. ولم يبق معهم بعد احتساء القهوة معتذراً بأنه مشغول.

بعد ذلك، عندما كانا بمفردهما في غرفة ماريتا، قالت لها والدتها:

«أتمنى ان تكوني سعيدة يا عزيزتي، فأنا أشعر ان هناك شيئاً يزعجك أنا متأكدة من ذلك. فهل صارحتني به؟»

صمتت ماريتا لأنها لم تقو ان تكذب على والدتها التي قالت لها:«راقبتك أثناء العشاء وراقبت البروفيسور

أيضاً.»

«ما هو انطباعك؟»

«لا تكوني متهكمة، يا حبيبتي، إني أريد الوصول الى الحقيقة... هارفورد لطيف وطيب ورائع، وهو يمتلك الحيوية لا شك في ذلك، ولا يعاني من أمراض الكهولة التي يعاني منها غيره من الرجال، ولكنه ليس شاباً في تصرفاته يا ماريتا ومن الصعب عليه ان يتجاوب مع فتاة سنها أقل من سنه بثمانية وعشرين عاماً، فلا بدّ ان تتأقلمي على طرق معيشته لأنني سرت في الطريق نفسها ولكن رحلتي كانت مع رجل يقارب سني.»

اتجهت ماريتا الى النافذة ثم قالت:

«لن اغير رأيي يا أماه... فأنت تتوهمين اموراً لا وجود لها. إنني أقدر اهتمامك بي ولكن لا فائدة من ذلك، فسأتزوج هارفورد.»

بعد يومين ذهب هارفورد الى مانشستر حيث يعقد مؤتمر عالمي لجمعية مراقبة الطيور، وقبل سفره عانق ماريتا وقال لها:«لو كنت بمفردك لأصطحبتك معي ولكني لن أغيب طويلاً.»

ثم تغير الجو واكفهرت السماء وكانت الامطار تسقط من وقت إلى آخر وتمكنت جوزفين من رؤية الحديقة كلما سمح الجو بذلك. وفي يوم اصطحبهما رايان الى نورويتش ثم تركهما في السوق وقال إن لديه بعض الأعمال. وتساءلت ماريتا إذا كان يدعي هذا العذر كي يتجنبها. ولما رأت المظلات الخشبية التي تغطي

أقسام السوق مرت على القسم الذي رأت فيه الشال الابيض الذي اشتراه لها رايان والذي استعاده ثانية. وربما أعطاه الآن لصديقته...

اشتدت العاصفة بعد ليلة على غياب هارفورد، وكان الهواء يعصف بشكل قوي.

استيقظت ماريتا بسبب الضجة التي سببتها العاصفة، ووجدت ان مقاعد الحديقة تهشمت. أمكنها رؤية الأشجار في الغابة الى جانب الغدير. وهبت ريح قوية آتية من بحر الشمال، لم تمنعها التلال التي صادفتها والتي كانت كحاجز للرياح، وسمعت اصواتاً آتية من الغابة. تذكرت ماريتا مخبأ هارفورد هناك وتذكرت ان العاصفة لا بد ان تهشمه، وهو قرة عين هارفورد وجزء من حياته. لبست بنطلوناً من الجينز فوق قميص نومها وسترة سميكة وارتدت صندلاً ونزلت إلى البهو ودلفت منه الى الخارج. كان الهواء شديداً فتناثر شعرها على وجهها، وكان العشب مبللاً بماء المطر فابتلت أصابعها ودخلت الغابة. اجتازت نبات العليق الذي مزق بنطلونها، وترك اثاراً على جلدها... نعم لقد وجدت المخبأ منهاراً تحت الاشجار وسقفه مهشماً وقد انقلبت المقاعد وابتل الدفتر حيث يدوّن هارفورد مذكراته، فلما وضعته في جيبها سمعت وقع اقدام تعبر العشب وتقترب منها. شعرت بخوف يفوق خوفها من العاصفة. ونظرت خلفها فرأت رايان ينظر إليها بغضب جعلها تشعر بحاجتها إلى حماية

نفسها منه. فأخذت تركض لكن الهواء أطار شعرها فحجب عينيها ومنعها من الرؤية. فاصطدمت قدمها بجزء بارز من جذور إحدى الأشجار وارتمت على وجهها وهي تئن.

شعرت بيدي رايان تحاولان إنقاذها. وتمكن من الامساك بها من كاحليها ورسغيها، وبقي وجهها إلى أسفل. كان يحملها وأحياناً يجرها فجرح الشوك وجهها ورقبتها. فأخذت تصرخ وتحاول ان تجعله يتركها. ثم شعرت بجسم الرجل يغطيها ليحميها من... ماذا؟ وسمعت صوت شجرة ضخمة تسقط قريباً منها حتى أن بعض الأغصان احتكت بها. وبينما بدأ الهواء الذي كان قد بلغ ذروته يهدأ، هطل المطر غزيراً، ثم رايان الذي ارتمى فوقها وبقيت ماريتا راقدة لأنها فقدت القدرة على الحركة.

جلس رايان وقال:«كادت تكون نهاية زوجة أبي المستقبلية. ماذا اتى بك في هذا الجو العاصف؟»

«إنه المخبأ الذي يعتز به هارفورد ولذلك...»

قاطعها رايان متهكماً:«ولذلك كخطيبة مخلصة حاولت إنقاذه مضحية بحياتك.»

«لم أكن اعرف ان الشجرة ستسقط.»

«أي شيء مقدر له الوقوع وبما في ذلك سقوط الأشجار. إنك مجنونة يا فتاتي. مجنونة... هل تسمعين؟»

وأعانها على الوقوف ثم امسك كفيها بين يديه وراح يهزها حتى تخبطت أسنانها، كانت حركاته

قاسية بعدالذي قاسته من العاصفة حتى انها أخذت تصيح وتعلن انها تكرهه، ولا تود ان تكون فرداً من عائلته...

لكن كلماتها انتهت بعناق بينهما اخترق تل الحواجز التي كانت تقف حتى الآن بين علاقتهما، حتى انها شعرت بعد ذلك أن حياتها انسحبت وانتهت...

أخذت طبيعة هذا العناق يعتريها. فبينما بدأت العاصفة تهدأ من حولهما، كانت العاصفة التي في داخلها تقوى. وللمرة الثانية راح رايان يخترق الحواجز، وكانت عواطفه هذه المرة خالية من الغضب بل تلتهب بالاثارة والرغبة. ولم تقل له لا تلمسني فقد اصبحت ملك هارفورد الآن ولست ملكك. فهي ما زالت تحبه بل زاد حبها له الآن... حتى إذا كان سيجعلها تحبه فقط ثانية، كي تجابه حقيقة علاقتها بهارفورد وينكشف لها مبلغ غبائها. أبعدها عنه ولكنه أبقاها معه فلم يفرغ بعد من مضايقتها.

فهمست تقول:«رايان.»

كانت منفعلة تود ان ترد له دفء شعوره، ولكنه أبعدها بخشونة وكانت يداه تحت إبطها لمساعدتها في المشي. حاولت ان ترى أي أثر ناعم في ملامحه أو أي إشارة بأنه يحتاج إليها كما تحتاج هي إليه. ولكن كأنها تبحث عن مسار أحد الطيور المضللة، فلم يبد أي ذرة من الشفقة أو الحنان وأخذ يضغط على ذراعيها ويقول:

«والآن يجب ان تتركي هذا المنزل وتتركي والدي.

اذهبي واخرجي من حياة ابي واتركيه لأحلامه.»

ولكنها لم تسمعه، فقد وضعت رأسها على كتفه تدريجياً وقالت وكأنها تهذي من الحمى:

«إنك سادي ومخادع، وقبيح، وتظن أنك لقنتني درساً... درساً آخر. قلت إنك ستلقنني الدرس تلو الدرس حتى أترك والدك وشأنه.»

وسكت المطر، ولكن دموعها ما زالت تنهمر على خديها. راحت تبكي وهي مرتمية على صدره وشعرت بصدره كالجبل. ثم همست تقول:«رايان... رايان.»

لكن قبضته لم تلن، وبقيت ذراعاه كالحبل الرقيق حول ظهرها.

رأيا البرق ينير السماء ولكن العاصفة هدأت عند الفجر. فابتعدت ماريتا عنه وقالت:

«ان وظيفتك تناسبك، فقلبك من حجر، ولا بد أن يستخرج قلبك من جسمك ويفحص ليعثر فيه المرء على بقايا النباتات والحيوانات أو شواهد أخرى من الماضي.»

قبض على ذقنها وأدار وجهها إليه فرأى على ضوء الفجر الخافت الجروح والخدوش التي سببها لها نبات العليق عندما جرها ليتفادى سقوط الشجرة عليها.

راحت ترتجف ولكنها لم تدر لتخبطها، سبباً لذلك، هل لابتلال ملابسها، أو للنظرة الباردة التي كانت في عيني رايان؟ لقد أنقذ حياتها ولكنها لم تشكره، وفجأة حملها بين ذراعيه وغادرا الغابة والشجرة

التي سقطت والمخبأ المنهار.
قالت وهي تحتج بضعف:«لا داعي لأن تحملني، يمكنني المشي.»
لكنه ظلّ يحملها عبر العشب متجهاً إلى البيت. ثم قالت:«رايان؟»
لكنه تظاهر بعدم سماعها وبالرغم من ذلك استمرت تقول:«أنقذت حياتي، شكراً لك.»
ولكنه لم يأبه لشكرها، واستمر في المشي يحملها كأنها عبء يود ان يتخلص منه...
شكرته، فماذا يطلب بعد ذلك؟ أنزلها في المطبخ وقال لها في حزم أن تبقى في مكانها، ثم أخرج من خزانة الاسعافات الأولية قطناً وسائلاً منظفاً وأخذ ينظف الخدوش التي كانت في جبهتها وأنفها وتسير بطول خديها. وأخذت تقول بدون فائدة:«لا داعي لذلك.»
ولكنه استمر في تنظيف وجهها حتى نظفه كما يريد وقال:«هل تحتاجين إلى مشروب ساخن أم بارد؟»
كانت تود ان تشرب مشروباً ساخناً ولكنها ردت تقول:«لا، شكراً. لا داعي أن تغالي في طيبتك فعندما يرجع هارفورد سوف أخبره عن اهتمامك بي، وأنك كنت مستعداً ان تخاطر بحياتك كي تنقذ عروسه المستقبلية من الكارثة التي سببها غباؤها.»
رأت غضبه الجامح في عينيه، فرفعت ذراعيها كي تحمي رأسها منه وابتعدت عنه. ثم رأته يقترب منها على مهل ويقول:«أنا سادي وجبار هذه هي كلماتك هل تذكرينها؟ لم أنسها ولن أنساها ابداً. وربما كنت

على حق. لذا، أسرعي بالخروج من هنا. بعيداً عن نظري واذهبي إلى غرفتك وأوصدي الباب وراءك. وإلا فإني لست مسؤولاً عما يحدث لك.»
لم تشعر ماريتا بالرجفة إلا بعد أن دخلت غرفتها إذ أخذ قلبها يخفق بقوة وأنفاسها تتلاحق، ولكنها لم تجد الذراعين اللتين تعطيانها حتى الدفء والسلوى.
في الصباح وجدت ماريتا نفسها مضطرة أن تقص ما حدث لامها، فشحب وجه جوزفين لما رأت وجه ماريتا الجريح وأصرت ان تعرف، فأخبرتها ابنتها بما حدث.
حين نزل رايان لتناول الفطور شكرته جوزفين فابتسم لها بحرارة وشعرت ماريتا بالبرودة تسري في قلبها. قال لها إنه من الخسارة ألا ترث ابنتها منها رجاحة العقل.
بعد عودة هارفورد طلب المزيد من التفسيرات. فشكرها بإخلاص عميق لذهابها كي تنقذ مخبأه المفضل.
كان رايان موجوداً للترحيب بأبيه فقال له:
«يجب ان تكون صادقاً معها يا والدي. قل لها إن ضياع المخبأ لا يعد كارثة، فمن السهل عمل مخبأ آخر باستعمال بقايا المخبأ القديم، وقد عاينته فوجدت أنه من السهل إعادة بنائه.»
التفتت ماريتا إليه وقالت:«هل تحاول ان تقول ان مجهودي في إنقاذ المخبأ كان هباء ضائعاً وأنني

www.elromancia.com

كنت سفيهة كما تحاول ان تجعلني أبدو دائماً؟»
أغضب رايان والده كذلك. فقال له بغضب: «إن الجانب المادي لا يهم. ولكني متأثر لأنها فكرت في وفي الاشياء التي تهمني، وهرعت أثناء العاصفة لانقاذها بينما أنت، بعدم اهتمامك بالغير، لا تعرف عن ذلك شيئاً.»
رد بسخرية: «شكراً لعرفانك بالجميل. أنا لم أنقذ حياة زوجتك المستقبلية من الموت المحتوم فقط بل كدت أفقد حياتي ايضاً.»
وخرج رايان، هرعت ماريتا إليه وهو يصعد السلم فالتفت إليها... كيف تهوّن عليه. وكيف تعمق الجرح الذي سببه له والده؟ وهمست تقول: «رايان! أنا آسفة.»
بقي وجهه جامداً وضاقت عيناه وأخذتا تطوفان بوجهها، ثم قال: «هل انت آسفة؟ ولماذا؟ هل أسفك عليّ أم على أبي أم عليك؟» ثم استدار وصعد بقية الدرج.
قضت ماريتا الصباح مع هارفورد في المخبأ الذي أعاد بناءه ولدهشة ماريتا، جاءت والدتها لمشاركتهما القهوة، وكانت هي التي حملتها إليهما بدلاً من السيدة فيسك قد تأبطت أحد المقاعد المصنوعة من القماش ثم وعدت هارفورد أن تبقى صامتة بينما يراقب طيوره ويتعرف على ألوانها وغنائها.
سر هارفورد لاعتماد اثنتين من اذكى النساء عليه

ولما رأى أن اهتمام جوزفين صادق وعد ان يعيرها كتباً في هذا الفرع. ودهشت ماريتا لتصرف والدتها التي كانت في هذه اللحظة تنظر في تليسكوب هارفورد لتتعرف على أحد الطيور. وأخذ يصفه لها: «إن ريشه ابيض وأسود. وذيله طويل يحركه من أعلى إلى أسفل.»
«لقد رأيته. رأيته على الفور.»
سرّ هارفورد لسرورها وقال: «إنك ابرع من ابنتك. فهي تحتاج الى وقت أطول منك لتقتفي أثر الطيور. ستصبحين في يوم ما، تحت إرشادي، خبيرة مثلي.»
ردت جوزفين تقول: «كانت دائماً بطيئة في ملاحظة الأشياء. تفوتها الأشياء الواضحة التي قد تكون تحت نظرها مباشرة.»
تعجبت ماريتا لعدم إخلاص والدتها لها وقالت: «أمي!»
رد هارفورد يقول:
«هل تقصدين انها إذا رأت طيوراً مألوفة، مثل البومة، واقفة على فرع شجرة فإنها لا تراها؟»
وضحكا معاً على حساب كرامتها. فابتعدت عن هارفورد الذي قال لوالدتها: «لقد آلمناها يا جوزفين... يا ماريتا... يا حلوة لا تغضبي بسرعة. لم نقصد إيلامك.»
قبل العشاء مباشرة شاهدت ماريتا من نافذة السلم سيارة صغيرة زرقاء تقف أمام المدخل وتدل على أن صاحبتها أنثى. ولم يطل بها التفكير كي تعرف

www.elromancia.com

صاحبتها. فلما سمعت الضحك الآتي من الممر خلفها غاص قلبها. ان ظنها لم يخب. لقد دخلت الفتاة الى غرفة رايان الذي كان يرحب بها.

اجتاحت ماريتا موجة عارمة من الغيرة لم تعرفها من قبل. ثم سمعت صوت بابه يفتح وحديثهما يصبح مسموعاً فنزلت إلى البهو مسرعة. بينما وصل رايان وصديقته إلى أول الدرج.

ونظرت ماريتا إلى اعلى ونظرت دورين إلى أسفل... كانت دورين تنظر إليها من عليائها فهي عدوتها اللدود وكانت ماريتا قد قابلت دورين في نورويتش ولكنها اليوم كانت انسانة مختلفة تقف شامخة على أول السلم.

ارتكز رايان على درابزين السلم، وأخذ ينظر إلى المرأتين، ولم يبادر أحد بأن يقوم بواجب التعارف فاستدارت ماريتا وقصدت غرفة الجلوس وهناك أحست بأنها أصبحت، من خلال خطبتها إلى هارفورد، صاحبة البيت. كان عليها ان تبادر بالترحيب بدورين ولا تنتظر من رايان ان يجمعهما. ولما دخلا الغرفة كانت دورين البادئة بالمبادرة. فاجتازت الغرفة مادة يدها فقامت ماريتا وصافحتها وهي تبتسم. ثم قالت دورين وهي تنظر إلى خاتم ماريتا: «لقد تقابلنا من قبل. في مكان يفتقر إلى كل هذه الفخامة. يجب ان أهنئك لخطبتك الى البروفيسور تيودور. أرجو لك السعادة. بلا شك سوف تعوضين كل ما ينقصك برغد العيش هنا.»

كانت تبتسم بكبرياء، فالتهب وجه ماريتا من المعاني المستترة وراء كلمات دورين، فهي في نظرها ستتزوج هارفورد لماله وممتلكاته. قالت دورين وهي تلتفت الى رايان:«الذي يتزوج رايان لا يصل الى هذا المستوى هذا القصر الفخم أو للترف الذي يغدقه عليه والديه...»

ركزت نظرها عليه وهي تقول:«إنك دائم الترحال يا حبيبي. ولا ممتلكات لك ولا روابط تعوقك ولا تحمل هما من هموم هذه الدنيا.»

تسم ويسكب المشروبات:«أنا ولدت رجلاً. أطوف في الأدغال وأجتاز الصحارى ولا أترك ورائي شيئا سوى آثار قدمي على الرمال. من غير امرأة تطاردني وتتعلق بملابسي وتقول إنها تحتاج إلي ولا تدعني أفلت منها.»

«شحب وجه ماريتا وردت تقول:«لا أجد أي امرأة تملك ذرة من العقل تريد ان تطارد رجلاً مثلك. لا يقدر المسؤولية ولا يهتم إلا بنفسه.»

ضحكت دورين وقالت:«من دواعي السرور أن تري، يا آنسة نيويل، أنك سوف تصطدمين بابن زوجك.»

نظرت ماريتا إلى رايان والكلمات تدور في رأسها. ابن... زوجها... وارتجفت يدها حتى، أن رايان أخذ الكوب من يدها. وبدا كأنه يفكر في هذا الوضع إذ ابتسم... ولكن لم تفكر هي من قبل انه سيكون ... ابن زوجها...

الفصل التاسع

بعد العشاء جلست جوزفين بجانب هارفورد على الأريكة تقلب كتب الطيور وتعجب بألوان ريشها الزاهية. وكانت ماريتا تعرف ان والدتها لها ذاكرة قوية تسجل كآلة التصوير، وكان مقعد رايان يقارب مقعد دورين، وكماخمنت ماريتا كان حديثهما يدور حول الجيولوجيا، لكن رايان كان يختلس النظر الى ماريتا وهي جالسة تقلب صفحات المجلة التي أعارها لها هارفود، وتحوي مقالاً كتبه بنفسه عن طيور شرق انغليا. فقرأت المقال ولكنها لم تهتم به.

ثم اخذت تراقب والدتها وهارفورد، فوجدت أن والدتها قد خطت خطوات واسعة في توطيد العلاقة بينها وبين خطيبها. وكانت والدتها تظن انه بعد زواج ابنتها سيصبحون جميعاً عائلة واحدة سعيدة، بمن فيهم الابن ولذلك اظهرت الودّ نحو صديقة الابن.

لاحظت ماريتا أن هارفورد تغير تغييراً كاملاً خلال الاسابيع التي قضتها معهم، فذهبت صورة ذلك

الاستاذ بملابسه العتيقة، وأصبحت لا تعرف الرجل الذي كان يطوف بالمعمل شارد الذهن ويتجوّل ويتمهل بجانبها ليوجه اليها النصيحة.

نظر اليها، فلما رآها جالسة وحيدة، أشار اليها أن تجلس بجانبه، ثم لف ذراعه حول وسطها وشعرت بقبلة سريعة على رأسها فنظرت اليه بعينين لامعتين، وشعرت بالسعادة لمحبته لها.

لم يلفت نظر جوزفين شيء مما يدور حولها، وأخذت تتحدث عن صور الطيور النادرة التي توجد في الكتاب، وبذلك تحوّل اهتمام هارفورد عن ماريتا.

ولكن من الذي يمكنه ان يسحب ذراع هارفورد التي تطوق وسطها؟ ومن الذي يمكنه ان يخلع خاتمه من أصبعها؟

انها لن تخضع ثانية لسحر رايان فقد ذاقت الذلّ على يديه وشعرت أنها الآن محصنة ضد سحره، فلن تتألم مهما بدا منه. أدار رايان اسطوانة راقصة وفتح ذراعيه لدورين وأخذ يرقصان في أرجاء الغرفة.

كان ينظر الى دورين ويتكلمان أحياناً ويضحكان كثيراً، فاقتربت ماريتا من هارفورد أكثر. ثم توقفت الموسيقى ولكنهما أعاداها ثانية واستمرا في الرقص.

وعندما أبدت جوزفين رغبتها في شرب القهوة هبّ هارفورد ينادي السيدة فيسك طالباً احضارها.

شعرت ماريتا بهوة بينها وبين والدتها، ولم تحاول ان تقترب منها ولم تشجعها جوزفين على ذلك فتألمت ماريتا ولم تفهم ماذا طرأ على والدتها...

وفجأة وجدت ماريتا رايان واقفاً أمامها يدعوها الى الرقص، فشعرت بالخوف لأنها لا تريد ان تلمسه وحاولت أن تتلافاه، ولكنه قبض على رسغها وأوقفها. فقالت دورين:

«دعي رايان يراقصك فهو يحب التغيير واذا تزوج يبقى بجانب زوجته لفترة ثم يتركها للبحث عن غيرها.»

قال رايان وهو يضم ماريتا الى صدره: «نعم سأتركها وما زالت قبلات شهر العسل على شفتي!»

قالت ماريتا:«لا اريد الرقص معك فأنت لم تستأذني.»

«الاستئذان ليس من طبعي، بل عليّ ان آخذ ما أريد ثم يكون جزائي ذراعين تطوقان عنقي.»

«أنك همجي وقاس.»

«قلت هذا من قبل...»

«اذن دعني اذهب.»

«لا.»

رأت هارفورد راجعاً الى الغرفة وعلى وجهه تعبير من عدم الرضى ثم جلس بجوار جوزفين وقال:

«عندما أتزوج يجب ان تأتي للاقامة معنا حتى نذهب جميعا لمراقبة الطيور.»

ولما فرغ رايان من الرقص انحنى بسخرية لماريتا ثم عاد الى دورين التي رحبت به.

فجأة استدعي هارفورد الى الجامعة. وسأل ماريتا ان كانت تريد الذهاب معه، ولكنها اعتذرت لأن

رجوعها الى عملها كخطيبة لرئيس القسم يجعلها تشعر بالخجل، ولن تحب ان تواجه زملاء هارفورد والخبراء وكبار رجال التعليم. كما انها في قرارة نفسها لم تتقبل فكرة خطوبتها الى الرجل الذي كان رئيساً لها. ذهب هارفورد في الصباح وهو يؤكد لها أنه لن يمضي الليل بعيداً عنها حتى لو عاد في ساعة متأخرة، اذ لن يؤخره شيء عن فتاة أحلامه.

في منتصف النهار كانت ماريتا في غرفة والدتها تجرب احدى قمصان الأم عندما سمعت نقراً على الباب، فدعت القادم ظناً أنها والدتها. ولكنه كان رايان فصاحت قائلة:

«لا، لا يمكنك الدخول، لقد ظننت أنك...»

«والدي... الذي كنت سترحبين به بذراعين مفتوحتين خطيبك؟»

«لا تكن سخيفاً. فوالدك سافر. وأنا أجرب بعض الملابس...»

«استمري. فمنظر النساء وهن يخلعن ثوباً ويلبسن آخر لا يخجلني...»

«هل رأيت الكثير منهن؟»

فضحك وقال:«كثيراً جداً.»

«ماذا تريد؟»

«أولاً ان أعطيك الشال...»

«واذا لم أعد أريده ثانية.»

«كفي عن عبثك معي يا حبيبتي. والا نالك أكثر مما ظننت. أو ألقه حول عنقك ثانية كما فعلت في المرة

www.elromancia.com

السابقة؟»

«لماذا تريد إعادة الشال اليّ؟»

«ربما نزوة أو ترضية، فيجب ان يسود بيننا التفاهم اذ سرعان ما ستصبحين فرداً من عائلة تيودور.»

«بل من الأجدر ان تدعوها هدنة أو راحة من الحرب.»

«اذن، هدنة، واستعدي لأننا سنخرج.»

«الى أين؟»

«هل تذكرين المركب الذي أخبرتك عنه... الجو منعش والوقت مناسب لرؤيته.»

«وهل نترك والدتي وحدها هنا؟»

«سنأخذها الى نورفولك لترى معالم المدينة وتجوب المحلات.»

«وماذا عن دورين؟»

«ذهبت وتركتني.»

«ولكن لماذا؟ كنت اعتقد...»

«اكتشفت أنها تضع هدفاً لها وهو الزواج. وهذا هو عيب النساء، فبعد عدة قبلات يتخيلن ان قسيمة الزواج أصبحت قريبة منهن.»

«انك حقير!»

ضحك عالياً وقال:«وظيفتي تحتم عليّ العيش في اماكن مقفرة، فحين احصل على اجازتي اوازن بين المعيشتين. ولذلك تعودت على النساء اللواتي لا يشكين الفراق ويقبلن ألا يرينني ثانية.»

«كما تقول خذ الحب واذهب.»

«نعم.»

«لم أفطن إلا الآن كم أكرهك.»

قال:«سأعطيك عشر دقائق حتى تستعدي.»ثم غادر الغرفة وخرج.

مرّا في طريقهما عبر قرى وحقول، ومنازل قديمة، تحمل آثار الزمن السحيق. وتناولا غداءهما في مطعم قديم يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر، وفي الطريق الى البحر سألته ماريتا: «وأين يقف المركب؟»

«بالقرب من هورننغ وعادة يذهب الذين يقيمون في المراكب الى المحلات القريبة قبل أن يتوجهوا الى مراكبهم وبما أننا نقيم هناك فلن نعرج على هذه المحلات.»

كان المركب صغيراً فيه حجرتين للنوم، وطاف بها في أرجائه ثم أشار الى المطبخ وهو يقول:

«وهنا نجد الحمام وخزائن الحائط وفي غرفة النوم أرائك للنوم، وتستعمل للجلوس نهاراً، وتوجد غرفة أخرى للنوم فيها كل وسائل الراحة الحديثة. وهي مثالية لقضاء شهر العسل، فهل تظنين أن والدي سيأتي بك الى هنا.»

اضطربت لهذا الخاطر، هل تبقى وحيدة مع هارفورد ليلاً نهاراً.

«والآن ما رأيك في المركب؟»

«انه رائع... هل نبقى فيه أم نبحر للنزهة؟»

«سنذهب للنزهة.»

www.elromancia.com

ادار المحرك وفك الحبل وقاده الى وسط النهر بمهارة. وسارا بين مراكب شراعية وقوارب تجديف، ورأت فنادق تحيطها حدائق ممتدة الى النهر ومظلات مخططة تظلل الموائد.

وكان رايان يقود المركب بخبرة وحان وقت الغذاء نظر اليها فرأى شعرها يطير مع الهواء وقد ارتسمت نظرة رضى على وجهها فقال:

«هل تشعرين بالجوع؟ ان كل شيء معد... أمسكي بعجلة القيادة.»

«لا... لا يمكنني ذلك.»

«ألا تقودين السيارة؟»

فأومأت برأسها فقال:«اذن يمكنك قيادة السفينة. حلي محلي الى ان آتي بالطعام.»

تقدمت ماريتا نحو عجلة القيادة، ووضعت يديها عليها فقال لها:«أمسكي العجلة بحزم، وحاولي ألا تصطدمي بشيء.»

تركها تقود المركب وحدها فشعرت بانتعاش لهذه التجربة، وكان المركب يشق الماء ويسير بين مجموعات البط البري السابحة في النهر.

وقف خلفها وقال:«هاتان بجعتان... ربما كانا ذكراً وأنثى وهما طيران جميلان.»

جفلت ماريتا وقالت:«أرجو ان تأخذ عجلة القيادة.»

«ولكنك تحسنين قيادة السفن.»

«أنا خائفة أن اصطدم بالشاطىء.»

عانقها... لكنها مضت تقول:«أشعر بجوع شديد.»

أراحها من القيادة وقال:

«سأجد مكاناً نربط المركب فيه ونتناول الطعام.»

وأدار المركب ناحية الشاطىء وقفز على البر وربطه في جذع شجرة.

سألته ماريتا: «كيف حصلت على هذا الطعام؟ هل هي السيدة فيسك؟»

«لا أنا اتصلت بأحد أصحاب المحلات المجاورة لمرسى السفن فجاء بالطعام ووضعه في القارب.»

وأشار الى وعائين لحفظ الشاي والقهوة:«وهنا ما تختارين من الشاي أو القهوة والسكر والحليب المجفف.»

«لم تنس شيئاً. هل ابدأ في الطعام؟»

«لا تستأذني في ذلك فأنت شريكة في اليخت اذ أوشكت ان تصبحي عروس أبي!»

تغير وجهه فذهبت ابتسامته وجمدت نظرة عينيه.

بعد الغداء استمرا في النزهة، وكانا يبعدان عن المنزل مسافة طويلة.

قال لها وهو يشير الى أحد الطيور:«دعيني أعرف كم افدت من تعاليم والدي، هل تعرفين هذا الطير؟»

فجاهدت لتعرفه وكانت على وشك الاعتراف عندما صاحت قائلة:

«أراه! ولم يكن والدك هو الذي أشار لي عنه بل أنت. وكان ذلك في بركلاند.. هل تذكر؟»

«نعم أذكر ذلك اليوم الجميل. ثم انظري... هذا الطير اسمه ملك الصيادين.»

www.elromancia.com

«نعم وهو جميل.»

ثم قالت له بخجل:«إنك تعلمني أشياء أكثر مما يعلمني والدك.»

ساد بينهما صمت كانت تتخلله أصوات الناس على الشاطىء وضحكاتهم ثم قال وما زالت ذراعه تطوق خصرها:«البعض يقولون ان هذه المنطقة هي صورة مصغرة لهولندا. كما ان طواحين الهواء تعمق هذا الشبه.»

ثم لاحظت أنه يرسو على منطقة ظليلة من ا لشاطىء فسألته: «أين نذهب الآن؟»

«لنستريح ونأخذ حمام شمس.»

«أليس من الأجدر ان نرجع؟»

«ونترك الشمس الدافئة؟ ومع ذلك لم نأكل بعد وجبة العشاء، فصاحب المحل أرسل لنا طعاما يكفينا أسبوعاً.»

نظرت حولها على الشاطىء وقالت:«لا يوجد نستريح عليه.»

فما كان منه الا أن أحضر بطانية من المركب. تمددا عليها جنباً الى جنب، وكان قربه منها يثيرها فقالت له:«أين اكتسبت لون سمرة الشمس؟ هل اكتسبتها من عملك في الخارج؟»

«لا اني راجع لتوي من شمال ألاسكا ولكني قضيت فترة عمل في ماليزيا قبل ذلك، حيث لوحتني الشمس بلونها.»

«لا بد أن اختلاف الحرارة من بلد الى آخر قد

ضايقك؟»

«كان صدمة لي. احتجت الى أسابيع لأتأقلم على البرودة في ألاسكا وكان الهواء يزمجر طول الوقت وكنت أرتدي طبقات من الملابس وقبعة من الصوف وقفازاً وحذاء طويلاً وسترة لها ياقة من الفرو ونظارة تقيني وهج الثلج.»

ضحكت وقالت:«وهل تركت لحيتك تنمو؟»

«نعم كانت حلاقتها متعبة، ثم لتحميني من البرد.»

«هل كنت تشبه والدك بلحيتك؟»

«لا، فنحن مختلفان في الشبه، فهو أسمر وأنا أميل الى اللون الفاتح.»

«هل تشبه والدتك؟»

«ربما...»

«صمت فترة وعاد يقول مغيراً الموضوع:«قسوة الجو تزيد من المشاكل لاستخراج البترول مثل كيفية استخراجه ونقله الى المناطق المأهولة من العالم.»

«الا يمكن استخدام السفن؟»

«البحار تتجمد لمدة طويلة من السنة.»

«كنت أظن ان الطريقة المثلى هي استخدام الأنابيب.»

«نعم، هذا ممكن فوق اليابسة.»

«كيف تعرف مكان البترول لاستخراجه؟»

«ندرس أولاً صوراً من الجو وتكوين الصخور الموجودة على عمق آلاف الأقدام، ونستخدم الآلات لمعرفة التغيرات في مغناطيسية الأرض وقوة

جاذبيتها، او نستخدم جهاز الزلازل لاحداث زلزال صناعي يخرج أمواجاً تسير في اتجاهات مختلفة بقوى متفاوتة بين الصخور. وعندما نعثر على تكوين الصخور المطلوبة نقوم بتجارب عليها. وعندي بعض منها في مكتبي.»

نهضت وأخذت تنفض ملابسها وهي تقول:«يجب ان أذهب الى المركب فقد حان وقت رجوعنا يا رايان.»

تبعها الى المركب وهو ينظف البطانية، ولما وصلا. ارتدى رايان قميصه وراحا يتناولان طعامهما.

«استمتعت بيومي يا رايان... وأشكرك لذلك.»

«انه من دواعي سروري أن تكوني معي.»

ثم أدار المركب واتخذا طريق العودة على مهل. كانت الشمس تميل الى الغروب، وتعكس أشعتها على المياه الهادئة. وكانت الزوارق قد عادت ما عدا مركب أو اثنين.

تنبهت ماريتا الى أنها في مياه غريبة عنها. فأخبرت رايان ولكنه اكتفى بالضحك. وبعد فترة رأته يجنح الى شاطىء في بقعة متوازية تحيطها الأشجار الكثيفة.

ارتابت ماريتا وسألته:«أين نذهب الآن؟»

«سنمضي الليل هنا.»

حاولت ان تأخذ عجلة القيادة منه، ولكنه ألقاها بعنف جانباً فسقطت فوق حلقة من الحبال.

«لا يمكن ذلك، فوالدتي ستقلق لغيابنا ولا حق لك في عمل ذلك.»

«لا يهمني، بل سنبقى هنا.»

همست تقول:«أرجوك يا رايان عد بي الى المنزل.»

«كان المساء قد ساد والهواء أصبح بارداً، فهل تمضي معه طول الليل، وهي لا حول لها ولا قوة.

«وهل أدع هذه الفرصة الذهبية؟»

«هل هذه احدى حيلك كي تبعدني عن والدك؟»

«انت وأنا هنا فلما لا ننتهز الفرصة؟»

«ليست لك أي مبادىء... وأنت انسان قاس.»

ثم قفزت من المركب وأخذت تجري نحو الاشجار وتخوض في نبات العليق الشائك، لكنه لحق بها وأمسكها وقال:«ستبقين معي حتى اذا اضطررت أن أقيدك بالحبال. واذا حاولت الفرار مرة أخرى فلست مسؤولاً عما يحدث.»

ارتمت على احدى الارائك ولكنه جلس بجانبها ولما ابتعدت عنه قال:«اخضعي لي يا حبيبتي، وأعطني ما أريد وما تريدين، ولن تندمي على ذلك أبداً.»

أخذت تبكي فقال لها:«سأريك كيف يكون حب الشباب فأنا الربيع لا الخريف كوالدي.»

ثم عانقها فشعرت أنها اصبحت جزءاً منه وحاولت ان تقاومه فلم تفلح، ثم فكرت أن تستعمل سلاح الكلام. فقالت:

«لن تنالني ثم تتركني كما ذكرت لي. ولن أطوق عنقك شاكرة فأنا لست من الفتيات اللواتي يحببن رجلاً ثم يشاهدنه يذهب وهو لا يبدي أي بادرة لشعوره. أنا احب والدك يا رايان وهو يثق بي، ولن

اجعله يأسف لكل هذه الثقة.»

كانت تقول هذه الكلمات دفاعاً عن نفسها، فرد قائلاً:«حسناً انك الآن في أمان ولن أمسك فقد أصبحت والدة لي!»

والدته... نعم فبزواجها من والد رايان تصبح زوجة أبيه، ومهما حاولت أن تبعد هذه الكلمات عنها فقد أخذت تدور في ذهنها.

ظلا صامتين طوال رحلة العودة في الصباح الباكر، وقد أمضت ماريتا ليلاً قلقاً يتخلله بكاؤها، أما رايان فقد نام نوماً عميقاً. وكان تنفسه منتظماً ولا بد انه كان متعوداً، أثناء عمله، أن ينام في أماكن متعبة مثل نوم المركب.

كانت رائحة الزهور جميلة والطيور حولهما تطير وتحلق في الجو. وكانت ماريتا تشعر بالتعاسة وتأسف لأنها لا تتمتع بالجمال المحيط بها.

ظلا طوال رحلة العودة في السيارة صامتين وعندما اقتربت الرحلة من نهايتها قالت ماريتا:

«لا بد أن أجد والدتي فور رجوعي وأخبرها بما حدث.»

«ولكنها تعرف مكانك.»

«والدتي تعرف؟ هل أخبرتها؟ هل تآمرتما كي أبقى معك طوال الليل؟»

وبدأت تسأل نفسها:«هل تآمرت جوزفين معه فعلاً؟ ولكن لماذا؟ ولما لا؟ فهما يتشاركان في الرأي بأن ماريتا يجب ان تترك هارفورد ولا تتزوجه.

وعند وصولهما ترجلت ماريتا من السيارة قبل ان يتمكن رايان من ايقافها، ثم قالت لنفسها انها يجب ان تخبر هارفورد. لحق بها رايان وأمسك بيدها وقال:«تعالي لأريك شيئاً من حقك أن تريه.»

وفي البهو التقيا بجوزفين فقالت ماريتا:«كيف تفعلين بي هذا؟»

لكنه قادها الى غرفة والده التي لم ترها من قبل، فتح الباب ودفعها داخل الغرفة. فلم تجد والده فيها، بل تسمرت في وقفتها اذ رأت شيئاً لا يصدقه عقل.

شاهدت في كل ركن من الغرفة وفي كل شبر منها صورة فوتوغرافية لشابة تشبهها الى حد كبير... فالعينان لوزيتان مثلها تماماً والفم مكتنز والحاجبان مقوسان وعظام الوجنتين العاليتين مثلها بالضبط، ولكن الذي فاق كل شيء في الشبه هو لون شعرها البني المائل الى الذهبي... اذن فرايان يشبه والدته.

وكانت غرفة هارفورد ركناً لزوجته الراحلة التي لم ينسها ابداً، وكان هذا الشعور يفسر أشياء كثيرة. فالكلمات الغريبة التي كان يقولها بأنه يعرفها منذ سنوات طويلة وأنه انتظرها لترجع اليه وعن الثوب الأصفر وعن الطريقة التي أمر بها رايان ألا يقترب منها...

امتلأ قلبها بالشفقة عليه. ثم استدارت على صوت هارفورد وقد تطاير شرر الغضب من عينيه، مما أخافها:«اذن، أمضيت الليل مع ولدي. وأصبحت ملكاً

له؟»

تحركت نحوه ولكنه تراجع. فقالت:«هذا ليس صحيحاً يا هارفورد. نعم امضينا الليل معاً في المركب ولكن كل واحد كان بمفرده.»

«أنا لا أصدقك. فأي امرأة تمضي الليل معه لا تبعد عن ذراعيه... انني أعرف ولدي جيداً.»

«هارفورد، أين الثقة؟»

«تتكلمين عن الثقة؟ أنا لا أثق بك بعد الآن.»

كان يتكلم ولا يدري ماذا يقول وكأنه يكلم شخصاً آخر... ربما كان يكلم المرأة التي عاشت نقية في خاطره لسنين طويلة.

الأحلام ذهبت الى غير رجعة. الأحلام التي وراء الأفق ووراء هذه الأحلام جابهت الحقيقة.

الفصل العاشر

انتهى كل شيء، وأصبحت ماريتا وحيدة، أطلت من نافذة غرفة الاستقبال في منزلها وهي تتساءل: متى تعود والدتها؟

أصبح مبنى الأفق وهارفورد ورايان من الماضي وانتهى فصل من كتاب حياتها. وأصبحت كذلك بدون عمل لاستقالتها حسب رغبة هارفورد عندما خطبها.

لم يشعر أحد برحيلها، فبعدما هربت من وجه هارفورد الغاضب كان كل واحد منهم في غرفته وبقيت هي وحيدة، كأنها نفيت الى جزيرة بعيدة.

دق جرس الهاتف كما دق مرات كثيرة ذلك الصباح واليوم السابق منذ وصولها، ولكنها تجاهلته فلم ترد... مهما كان الطالب... هارفورد أو والدتها أو رايان، فلن ترد عليهم اذ ليس لديها شيء تقوله لأي منهم.

لم تأخذ إلا معطفها ومضت الى البلدة واستقلت الحافلة الى نورويتش ثم أول قطار الى منزلها وتركت والدتها تجمع الحطام.

www.elromancia.com

لكن مر يومان ولم تحضر والدتها. حتى المكالمات الهاتفية توقفت، وكان صمت الهاتف بعد رنين مستمر يؤثر على أعصابها وأكثر مما فعل الرنين الدائم.

في الليلة الثالثة رن جرس الهاتف عند الفجر، وكان رأسها يدور من تأثير النوم ومقاومتها تنهار أمام ضعفها. نزلت ماريتا الى الصالة وردت:

«ماريتا؟ حبيبتي... حاولت كثيراً الاتصال بك. هل أنت بخير؟»

«نعم. وشكراً يا أمي...»

«أنا قلقة عليك يا عزيزتي. لماذا لم تردي على الهاتف، رايان يود ان يكلمك.»

وضعت ماريتا السماعة ورجعت الى سريرها. لكنها لم تنم بل رقدت متيقظة وانتظرت أن يرن جرس الهاتف ثانية. ولكنه ظل صامتاً حتى بعد طلوع الشمس، ولما خاب أملها راحت في سبات عميق، أيقظها منه رنين جرس الباب.

لما نظرت في ساعتها وجدت ان النهار انتصف فالتقطت الروب وهبطت درجات السلم. لا بد ان تكون والدتها جاءت أخيراً ولكنها تذكرت وهي تفتح الباب أن والدتها معها مفتاح.

ورأت رايان وقد وضع كتفه على الباب وظل يدفعه ثم أغلقه ووقف ينظر اليها وهو عاقد الذراعين على صدره، وتذكرت ان ملابسها غير لائقة وشعرها مشعث.

همس يقول:«تماماً كما توقعت. وجه شاحب وظلال تحيط بالعينين ونحول نتيجة لفقدان الشهية ... هل فسخ الخطبة أثر عليك لدرجة المرض؟ هل تريدين العودة الى أبي؟»

قالت بهدوء:«اذهب وإلا استدعيت الشرطة.»

وقف بينها وبين الهاتف وقال:

«إنك تعرفين كيف أصارع النساء وأتغلب عليهن؟»

قادته الى غرفة الجلوس وظنت أنه غافل عنها فحاولت الوصول الى الهاتف، ولكنه كان متنبهاً الى هذه الحركة فاستدار وأمسك بها وشدها الى صدرها بشدة. أبقاها بقربه، لكنها تملصت منه فضغط على ذراعيها وقال لها وهو ينظر اليها: «كوني لطيفة، فإنك عزلاء.»

كان قميص نومها قصيراً ذا صدر مفتوح فقالت له:«سأكون لطيفة يا رايان إذا تركتني أرتدي ملابسي. وأعدك ألا أهرب. تركها فأخذت تدلك ذراعيها حيث امسك بها.

«احفظي وعدك لي وإلا سأتصرف بما لا يلائم سمعتي... ولن اشفق عليك هل هذا مفهوم؟»

هزت رأسها وارتقت الدرج خطوة خطوة. ولما وصلت الى نهاية السلم كان قلبها يخفق. وكان عليها أن تعمل ما في وسعها لتجعله يغادر المنزل. ارتدت بنطلوناً وبلوزة مضلعة ومشطت شعرها ووضعت بعض المساحيق على وجهها ثم تساءلت هل تجد الهمة والشجاعة لتجعله يذهب؟

حين نزلت وجدته ينتظر في الصالة وتبعها إلى غرفة الاستقبال، لا بد أنه لاحظ ظروف معيشتها والفرق بينها وبين مبنى الأفق ولكنه لم يبد إشارة تدل على ذلك.

أشارت اليه ان يجلس لكنه ظل واقفاً ثم قال:

«والدي يريد رؤيتك. وود أن يفسر لك كل شيء، ويفضل ان يكون التفسير شفهياً وليس مكتوباً.»

«ادرك كل شيء ولا أحتاج الى تفسير.»

«حسناً إذا لم تسمعيها منه فاسمعيها مني. ولنبدأ من البداية. والداي تزوجا في اول شبابهما اذ لم يكن عمر كل منهما يتعدى التاسعة عشرة، وكان ابي على علم بأن والدتي تعاني من مرض القلب وقد حذرها أحد الأطباء من الانجاب لكنها لم تأبه به وأقنعت والدي بإنجاب طفل كانت في أشد الشوق اليه، ثم توفيت بعد ساعات من مولدي، وطلبت من والدي أن يسميه رايان هارفورد تيودور.»

نظر من النافذة ثم قال:«كانت تعرف أنها لن تعيش، ولكنها أخبرت والدي في النهاية انها تأسف لفراقه، فقد كانا متحابين، وبقي والدي مقيماً على حبها بعد وفاتها حتى انه حوّل غرفته الى ركن دفن فيه ذكراها. وأقسم ألا ينساها وألا يتزوج ابداً.»

تقدم رايان ووقف أمامها. وأضاف:«الى أن قابلك فرآك تشبهينها. وبالرغم من أنه عالم يفكر باتزان وبعقله كان يجزم بأنها رجعت كي تعيش في شخصك.»

نظرت اليه بعينين واسعتين وقالت:«كان معتاداً أن يأتي ويقف بجانبي ويراقبني وأنا أضع المعدات والأدوات استعداداً للتجارب. ولم أفهم السبب.»

«والآن؟ هل فهمت السبب؟ وهل فهمت سبب دعوته ولماذا كان يعانقك ويلاطفك؟»

«لم يلمسني كما تظن حتى ولا بعد الخطوبة. بل كان يعاملني بكل احترام.»

«هذا ما أعنيه، فقد اعتبرك زوجته وأنت لست كذلك.»

«ولماذا تتعاركان دائماً؟»

«كان يعاقبني لأنني السبب في وفاة والدتي، وكان علي حمل العبء طول حياتي. في الحقيقة كان يلقي جزءاً من الذنب على نفسه. لقد أبقيتك معي طول الليل في المركب، وكان ذلك بعلم والدتك لأني أعرف أنه سيظن بنا الظنون، وانني كنت آمل ان يكون كافياً ليعود الى رشده. وأدخلتك غرفته كي ترجعي أنت أيضاً الى عقلك والى الحقيقة.»

لم يبق شيء بعد ذلك. وتركت ماريتا لرايان الخطوة التالية فقال:«كلمت والدتك مرة بالهاتف. واشتركنا في حديث طويل عنكما واكتشفت معارضتها للخطبة فشجعتها على قبول الدعوة بأن تأتي الى مبنى الأفق كي تنصحك بفسخ الخطبة.»

«وهل هذا السبب الذي ذهبت لأجله الى المحطة لانتظارها؟ كنت أتساءل كيف عرفتها.»

«إنها مثلك وتهديك سلامها، ويمكنني أن أقول لك إنها تتقارب مع والدي بسرعة، وقد أقنعته أن

يجمع الصور الفوتوغرافية من غرفته وهي تأمل أن يمضي في الحياة، في يوم قريب، مع شريكة جديدة.»
ثم ابتسم وتابع:«وعلى اي حال تشبهك كثيراً وبذلك تشبه والدتي أيضاً. ولكنها تكبرها كثيراً.»
أمها وهارفورد؟ الفكرة أدهشتها في البداية ثم راقت لها كثيراً.
فقال:«لا بد أن تعرفي كذلك أن التوتر الذي يقوم بيني وبين والدي خف كثيراً. وكان أميناً في قوله أنه أبقى عاطفة الأبوة نحوي تحت يد من حديد وأصبحنا الآن صديقين... علاوة على أب وابنه.»
سألته ماريتا:«هل هذا كل ما تريد قوله؟»
«وهل عندك ما تقولينه؟»
سألته عما يقصده فرد بقوله:
«في ليلة جميلة سمعت منك عبارة، وما زلت أتساءل إذا كانت صحيحة.»
«بأنني أحبك؟ قلتها تحت التهديد... وقد سمعتك تقول لوالدك إنك عملت ما في وسعك كي تجعلني أحبك. حتى يرجع الى عقله. فما فائدة هذه العبارة الآن؟ وإني أعرف رأيك في النساء فلا تريد روابط ولا أطفال تعوق طريقك. وأنت تعرف ايضاً رأيي فيك. أخبرتك بذلك مرات عديدة.»
«إذاً هذا كل شيء.»
وقفا ينظران الى بعضهما البعض، هو بنظرة لا مبالاة وبرود وهي غير مصدقة، انها لن تراه ثانية بعد أن طردته من حياتها... ثم قالت بجمود:«الوداع.»

«الوداع يا ماريتا.»
مال عليها يعانقها ولكن هذه المرة كانت عاطفته قد امتزجت بالحنان فخضعت لعاطفته الجديدة... لرقته وحنانه بدلاً من قسوته السابقة عليها.
ونظرت اليه وهو يتركها بعدما جعلها تتجاوب معه وترد قبلاته ثم اتجه نحو الباب... فامتلأت عيناها بالدموع وقالت له:
«رايان، خذ الحب ثم اتركه واذهب. هل تؤمن بكل كلمة من هذه العبارة؟»
«نعم أؤمن بذلك. ولكن المعنى يختلف، فقد أصبحت العبارة الآن: لن أتمكن من أخذ الحب ولذلك يجب أن أذهب... الوداع يا ماريتا.»
اتجه نحو الباب ثانية. ولكنها هرعت وراءه وهمست تقول:«لا تذهب.قل لي معنى هذه العبارة أرجوك.»
«أليس من الأصلح أن تقولي ماذا تعنين؟»
لم يقو لسانها على الكلام قال لها:«اذا لم تكوني قادرة على الكلام أخبريني بالفعل.»
تقدمت نحوه وطوقت خصره بذراعيها وألقت برأسها على صدره فقال لها هامساً: «انظري الي يا حبيبتي...»
ولما نظرت اليه قال:«أحببتك من النظرة الأولى، وعرفت لماذا اختارك والدي، فالشبه الذي يجمعك بوالدتي لا يصدقه عقل. وقد عرفت من البداية خطأ والدي وذلك لصغر سنك، كنت اعلم باحتفاظه بصور والدتي في غرفته وأعرف أنه يتخيل أن زوجته

www.elromancia.com

الحبيبة قد عادت إليه وأنه يحاول ان يمزج شخصيتك بشخصيتها، وكانت المشكلة هي كيف نجعله يعرف خطأه ونجعلك تعرفين خطأك.»

ابتعدت عنه قليلاً وقالت:«ولماذا تتعاركان؟ ولماذا يبدو انه يكرهك؟»

«تذكري انه تألم لمدة اثنتين وثلاثين عاماً. كان يعاني فيها الشوق لحبه المفقود. ولما كبرت قليلاً لم يكن عادلاً وكان يلومني لموت والدتي وأخيراً أعادته سعادتي بك.»

كانت تريد المزيد من التأكيد فقالت:«ولكن يا رايان... لقد عرفت دورين وفضلتها عليّ.»

«عرفتها بهدف أن أثير غيرتك، فهل نجحت في ذلك؟»

«لقد ذقت الأمرين.»

«انني سعيد بذلك وآسف ياحبيبتي، لكني أحذرك فلن أكون العاشق الرقيق دائماً. ولكن كنت أود أن أحارب والدي بكل الاسلحة التي أملكها... بقوتي وشبابي... حتى أنال المرأة الوحيدة التي أحببت حباً صادقاً، والتي أريد ان أتخذها زوجة لي وأن تبقى بجانبي في كل دقيقة من حياتي. والآن يا حبيبتي هل عرفت كم أحبك؟ وكم آلمتني الصفات التي أطلقتها عليّ؟ ولذا أردت، بل أجبرتك، أن تعترفي لي في تلك الليلة بأنك تحبينني؟ وأجعل والدي يعود الى عقله وأجعلك ترجعين أيضاً الى عقلك باستحالة الزواج من الأب وأنت تحبين الأبن؟»

قالت له وهي في حيرة:

«هل تنوي الزواج بي؟»

ضحك عاليا وقال:«بل أصر على الزواج بك. وستضعين خاتمي في أصبعك وتحملين أطفالي، أما عن حريتي فتصبح عظيمة إذا كانت مشتركة بيننا. وعندما أجوب الصحارى في المستقبل سنترك وراءنا اثاراً لأقدامنا على الرمال.»

تـــــــمت

www.elromancia.com